الباب الخامس ٤- ٥

عِلَل العين في كتاب (معرفة مِحْنة الكَحَّالين)

الفصل الأوَّل ٤- ٥- ١

عِلَل العَصَب

يُفردُ ابنُ ماسويه في الكتاب ما يشبه فصلًا مخصَّصًا لثلاث مسائل:

الأولى: "من قِبَلِ أيّ شيءٍ يُبْصِرُ الإنسانُ بالنَّهار ولا يُبْصِرُ باللَّيل؟".

والثانية: "من أيّ شيءٍ يُبْصِرُ الإنسان باللَّيل وفي الظلمة ولا يبصِرُ في الضَّوء ولا بالنَّهار؟".

والثالثة: "من قِبَلِ أيّ شيءٍ يُبْصِرُ الإنسانُ من بعيد ولا يبصِرُ من قريب؟"

ويُسَمِّي هذا الفصل (عِلَل العَصَب)، فعنده: تَكْمُنُ أسبابُ هذه العِلَل الثلاثة في العَصَب الأجوف.

وفي حدود ما نعرف، فإنَّ غيرَهُ من المؤلِّفين لم يَقْصر أسبابَ هذه العِلَل على العَصَب البَصَريّ وحدَهُ بل عدَّدَ لها أسبابًا أخرى تكمن في أماكن أخرى من العين في بعض الطَّبقات أو الرُّطوبات.

ومنها تغيّراتٌ تحدث في الرُّوح الباصر نفسه.

كما أنَّ هؤلاء المؤلِّفين ضَمُّوا إلى هذه العِلَل الثلاثة عِلَّةً رابعةً وجعلوها كلَّها في فصلٍ مستقلٍّ أو شبه مستقلٍّ في تصنيفهم: "أنْ يُبْصِرَ الإنسانُ من قريبٍ، ولا يُبصِر من بعيد".

فلماذا أهملَ ابنُ ماسويه هذه العِلَّة الرَّابعة؟

إذا كان السَّببُ في ذلك أنَّ هذه العِلَّةَ لا تنجمُ عن العَصَب الأجوف وبالتالي ينبغي ألَّا تُصَنَّف في هذا المكان في الكتاب فالسَّبَبُ واضحٌ.

لكنَّ هذه العِلَّة التي لم تَرِدْ في هذا الكتاب الذي بين أيدينا، يمكن أنْ تكونَ قد سقطت كما سقط غيرها من محتوى الكتاب، وابن ماسويه كان قد ذكرها.

إذا راجعنا كتابَه الآخر (دَغَل العين) فإنَّنا نجد فيه فصلًا **للعَشَا**؛ أي للشخصِ الذي "يُبْصِرُ بالنَّهار ولا يُبْصِرُ باللَّيل"، أي للحالة الأولى التي يدرسها في كتاب (معرفة مِحْنة الكَحَّالين)، فهل نجدُ في (دَغَل العين) أيَّ فصلٍ مخصَّصٍ للعِلَلِ الثلاثةِ الأخرى؟

إنَّ القراءةَ المتأنّيةَ لـ(دَغَل العين) تُبَيّنُ أنَّ الكتابَ كُتِبَ من قِبلِ تلميذٍ (أو أكثر)، استمعَ لمحاضراتٍ أَلْقاها ابنُ ماسويه، فسجَّلَها في أَثناء حضور المحاضرة، أو بعد ذلك، ولكنَّه سَجَّلها دون أنْ يعطيها حَقَّها من المراجعة والتَّدقيق فجاءت حافلةً بالأَخطاء والنَّقص، وأحيانًا بالخلط. كان الكاتبُ يكتب اسمَ عضوٍ في مكانٍ عضوٍ آخر أو يُهْمِلُ بعضَ العبارات التي جاءت على لسانِ المحاضر، وهكذا.

كُلُّ هذه الإساءَة إلى المادَّة العلميَّة التي قدَّمها الأستاذ (المؤلِّف!) حَصَلَتْ قَبْلَ أنْ تبدأَ إساءات النُّسَّاخ. حصلت على يد التلميذ الذي حَرصَ على تدوين ما قاله أستاذه، لكنَّه لم يعطِ "التَّدوين" حَقَّهُ من الجهد.

بالتَّدقيق في (دَغَل العين) يتأكَّد لنا أَمران:

أولهما: أنَّ ابنَ ماسويه يرى أنَّ إصابات (الرُّوح الباصر) تسبِّب هذه العِلَل التي جاء ذكرها في (معرفة مِحْنة الكَحَّالين) بوصفها من أمراض العَصَب الأجوف، فهذه العِلَل إذًا لها أسبابٌ أخرى[1].

١- أوردها ابن ماسويه في: دَغَل العين، الفصل الرابع والعشرين.

وثانيهما: أنَّ ابنَ ماسويه يخصِّصُ فصلًا للعِلَّة الرابعة التي لم ترد في (مِحْنة الكَحَّالين) حينما اكتفى محرِّر الكتاب بذكر عِلَلٍ ثلاثةٍ ولم يذكر الرابعة.

فهل أهمَلَ المحرِّرُ (الكاتبُ) هذه العِلَّةَ؟ أم أنَّه كَتَبَها وأهملها الناسخُ؟

يقول ابنُ ماسويه عن هذه العِلَّة: "... الذين يُبْصِرون الأشياءَ القريبةَ بَصَرًا جَيِّدًا، ولا يُبْصِرون الأشياءَ البعيدةَ كما ينبغي"[١].

ابنُ ماسويه يعرِفُ إذًا العِلَلَ الأربعة:

١- "العَشَا"[٢]: ويذكر اسمه باللُّغة السُّريانيَّة[٣] أيضًا.

"يبصِرون بالنَّهار ولا يبصِرون باللَّيل"[٤].

٢- "يبصِرُ باللَّيل وفي الظُّلمة ولا يبصِرُ في الضَّوء ولا بالنَّهار"[٥].

٣- "يبصِرون الأشياء البَعيدة، ولا يبصِرون الأشياء القريبة"[٦].

٤- "يبصِرون الأشياء القريبة، ولا يبصِرون الأشياء البعيدة"[٧].

لكنَّ النَّصَّ الذي وصل إلينا في الكتابين يحتاج إلى تحقيقٍ؛ وذلك بمقارنة الفقرات بعضها ببعض، ومقارنتها كذلك بما جاء عند حنين وعليّ بن عيسى.

١- دَغَل العين: الفصل الثالث والثلاثون.

٢- دَغَل العين: الفصل الواحد والثلاثون.

٣- دَغَل العين: الفصل الواحد والثلاثون.

٤- دَغَل العين: الفصل الرابع والعشرون. معرفة مِحْنة الكَحَّالين: (المسألة ١٨).

٥- معرفة مِحْنة الكَحَّالين: (المسألة ١٩).

٦- دَغَل العين: الفصل الرابع والعشرون. معرفة مِحْنة الكَحَّالين: (المسألة ٢٠).

٧- دَغَل العين: الفصل الثالث والثلاثون.

والمؤسف أنَّ الاسمَ السُّريانيَّ (للعَشَا) جاء مكتوبًا بطريقةٍ لا تُقْرأ، وإلَّا لكان وثيقةً مُهمَّةً، ذلك أنَّ المؤلِّفين في ذلك العصر ذكروا الاسمَ الفارسيَّ للمرض، وفي هذا دلالةٌ مُهمَّةٌ لمن يكتب تاريخ الطِّبِّ العربيِّ قبل عصر الترجمة.

ترى هل انفردَ ابن ماسويه بذكر الاسم السُّريانيِّ لهذه العِلَّة؟ أم أنَّ هذا الاسم وصلنا في نصٍّ عربيٍّ آخر؟.

البحث الأوَّل ٤- ٥- ١- ١

العِلَّةُ التي فيها "يُبْصِرُ الإنسانُ بالنَّهار، ولا يُبْصِرُ باللَّيل"

هذه العِلَّة معروفةٌ في العربيَّة قديمًا[١]، ولها اسمٌ خاصٌّ في كُلِّ اللُّغات القديمة التي عرفها العرب أيام ابن ماسويه، فالعربُ يسمُّونها (العَشَا) أو (العَشَاوة)، والعليل هو (الأَعشى)، وبعضهم يفهم كلمةَ (شَبْكور)؛ ومعنى شَبْ: (ليل)، ومعنى (كُور): (أعمى) بالفارسيَّة، فالمريض (أعمى باللَّيل)[٢]، وقد ذكر ابنُ ماسويه كلمة (شبكور) كما ذكر كلمة (شَبْكَرة)، ومن الواضح أنَّ العربَ أخذوا الكلمةَ الثانية من كلمة (شبكور) التي عَرَّبوها منذ زمنٍ طويلٍ، واختيارُهم كلمة (شبكور) إلى جانب كلمة (أَعشى) دليلٌ على اختلاطهم بالفرس اختلاطًا وثيقًا ومديدًا.

وقد استعمل حنين كلمةَ (شبكور) كما استعملها عليّ بن عيسى، وكلاهما ذكر الكلمةَ العربيَّة (العَشَا)، و(أعشى).

وقد انفرد حنين بذكر الاصطلاحِ اليونانيّ الشَّائع في التراث الطِّبِّيِّ الإغريقيِّ، وكان حنين أكفأَ من اشتغل عليه من العرب، هذا الاصطلاح هو (نوقطالبوس)، وهو اصطلاحٌ ما يزال مفهومًا في الطِّبِّ الحديث.

لكنَّ ابنَ ماسويه في (دَغَل العين) يذكر الاسمَ السُّريانيَّ للمرض، ويقول عنه: "وهو العَشَا"، ومن المؤسف أنَّ الكلمةَ في مخطوطاتنا غير مقروءةٍ، ذلك أنَّ ابن ماسويه –الذي كانت السُّريانيَّة لغتَه الأمّ– يعرفُ بالتأكيد ماذا جاء في الكُتُبِ الطِّبِّيَّة السُّريانيَّة المتوفرة في بغداد أيّامَهُ، والتي نُقِلَ بعضُها عن اليونانيَّة،

١- يُلقَّب بعض الشُّعراء بالأعشى، ومنهم الأعشى الشهير صاحب المعلَّقة.

٢- أو (الأعمى ليلًا).

فالاصطلاح الذي كتبه ابنُ ماسويه في (دَغَل العين) هو الترجمةُ السُّريانيَّة التي استعملها المترجمون السُّريان لكلمة (نوقطالبوس)، وهو الاصطلاح المفهوم في السُّريانيَّة تمامًا كما كان (العَشَا) مفهومًا في العربيَّة، وكما كان الاصطلاحُ الفارسيُّ مفهومًا عند أهل العلم في بغداد، السُّريان منهم والعرب.

هذه العِلَّة سببُها انسدادُ الطريق الذي يسلكُهُ الرُّوح النَّفسانيُّ في تجويف العَصَب البَصَريّ، ذلك أنَّ (العَصَب الأجوف) هو (المؤدِّي) لهذا (النُّور)، الذي يأتي من الدِّماغ إلى العين.

والانسدادُ سببُهُ (كيموس)، (بلغمٌ لَزِجٌ)، فالبَرْدُ في اللَّيل "من شأنِهِ" "الجَمْعُ"، "فإذا كان اللَّيلُ جَمَّدَ وجَمَّعَ ذلكَ الفضلَ الرَّاسِخَ في العَصَب وسَدَّ الطَّريقَ والمَسْلَكَ الذي ينفُذُ فيه هذا النُّور" "فلا يُبْصِرُ الإنسانُ باللَّيل".

أمَّا النَّهارُ "فطبعهُ الحرارةُ، فبحرارته واستنارةِ الشَّمس، وحرارةِ شعاعِها، وحركةِ العَصَبِ وتَقَلُّبِهِ بالنَّهار تتحلَّلُ تلك الرُّطوبةُ الرَّاسخةُ في العَصَبِ الأجوف" "فإذا تحلَّلَتْ" "أَبْصَرَ صاحبُ العِلَّة".

يعبِّرُ حنين بن إسحق عن سبب هذه الآفة وعن آليَّةِ حدوثها بلغتِهِ الخاصَّة، لكنَّ المعنى هو نفسه الذي جاء عند ابنِ ماسويه في (معرفة مِحْنة الكَحَّالين).

"باللَّيل، تكاثفت الرُّطوبةُ أو الغِلَظُ، بسبب هواء اللَّيل ورطوبته"، "بالنَّهار، لطُفَتْ الرُّوحُ بحرارة هواء النَّهار"[1]، ذلك أنَّ السَّببَ هو نفسه: "كثرة الفُضول المخالطة"[2]، "غِلَظُ رطوبةٍ تخالطُ الرُّوحَ النَّفسانيَّ"[3] في العَصَب الأجوف.

١- المسائل في العين: (المسألة ٢٠٢، ص٧٣).

٢- العشر مقالات: (ص١٤٤).

٣- التَّذكِرة: (ص٢٩٥-٢٩٦).

ويكاد عليُّ بن عيسى يطابق حنينًا حتى في اختيار الكلمات: "باللَّيل: تكاثفت تلك الرُّطوبةُ والفضولُ، بسبب هواء اللَّيل ورطوبته، فلا يُبْصِرُ باللَّيل".

"بالنَّهار: لطُفَتْ تلك الرُّطوباتُ والغِلَظُ بسبب حرارة هواء النَّهار، فيَلْطُفُ البَصَر".

سبق أنْ قلنا أنَّ عددًا من المؤلِّفين لم يقصر أسبابَ حدوث هذه العِلَّة على انسداد "الطريق الذي ينفذُ فيه النُّور" أي "العصب الأجوف" بل ذكرَ أسبابًا أخرى؛ من هذه الأسباب:

١- "كثرةُ رطوباتِ العين وغِلَظُها"[١]:

كَأَنْ تعرِضَ "رطوبةٌ للبيضيَّة"[٢].

أو "رطوبةُ الجليديَّةِ وكدورَتُها"[٣].

٢- إصابةٌ في الرُّوح الباصر نفسه:

"قِلَّة الرُّوح الباصر في خِلقته"[٤].

أو "رطوبة الرُّوح الباصر"[٥].

أو "غِلظ الرُّوح الباصر"[٦].

١- القانون: (٢/٢٣٩).

٢- التَّذكِرة: (ص٢٩٥-٢٩٦).

٣- القانون: (٢/٢٣٩).

٤- القانون: (٢/٢٣٩).

٥- القانون: (٢/٢٣٩).

٦- القانون: (٢/٢٣٩).

أو "غِلَظ الرُّوح النَّفسانيّ"[1].

وفي (دَغَل العين)[2] نجدُ تفسيرَ ابن ماسويه نَفْسَهُ جاء في (معرفة مِحْنة الكَحَّالين)، كُلُّ ما في الأمر أَنْ نُحْسِنَ قراءةَ ما قاله المؤلِّف من خلال ما كتبه محرِّر الكتاب:

"ينزلُ من الدِّماغ إلى العين" والمقصود هنا العصب الأجوف، وكذلك "من الدِّماغ إلى الحِجاب" "الشَّبكيّ".

"رطوبةٌ تجتمع" "كَثُرَت السُّدُد" "أضعفت قوَّةَ البَصَرِ".

وتعريف المرض واضحٌ تمامًا: "يبصِرُ بالنَّهار ولا يبصِرُ باللَّيل"[3].

ومن قراءة ما جاء في (دَغَل العين) يَظْهَرُ لنا أنَّ ابن ماسويه لاحظ ضعفَ بصرِ المريضِ المصابِ بهذه العِلَّة **حتى في النَّهار**، لكنَّ كاتبَ (دَغَل العين) جاء بجُمَلٍ متفرِّقةٍ إذا جمعناها رأينا فيها ما أراده ابن ماسويه:

"في يوم الصَّحو" "إذا نظر إلى الأشياء... يراها كأنَّها مُظْلِمَةٌ" "قد تَغَشَّاها الدُّخان والظُّلْمة" "كمثل ما يُبْصِر الضَّبابَ والدُّخانَ" "فإذا كانت الشَّمسُ ونورُها عند بَصَره هكذا، فكم بالحريّ في اللَّيل وظُلْمَتِه؟".

لكنَّ ابن سينا يعبِّرُ عن هذه الفكرة بوضوحٍ واختصارٍ: "العَشَا أنْ يتعطَّلَ البَصَرُ ليلًا، ويُبْصِرَ نهارًا، ويضعُفَ في آخره".

أي في آخر النَّهار، تمامًا كما نكتب اليومَ في كتبنا المعاصرة.

١- القانون: (٢/٢٣٩).

٢- دَغَل العين: الفصل الحادي والثلاثون.

٣- دَغَل العين: الفصل الثالث والأربعون.

البحث الثاني ٤- ٥- ١- ٢

العِلَّة التي فيها "يبصِرُ الإنسانُ باللَّيل وفي الظُّلمة، ولا يبصِرُ في الضَّوء ولا بالنَّهار"

في (مِحْنة الكَحَّالين) لا يعطي ابنُ ماسويه لهذه العِلَّة اسمًا خاصًّا، أمَّا حنين ابن إسحق فإنَّه يسمِّيها "روزكور"[١]، وهذا اصطلاحٌ فارسيٌّ صريحٌ، يبدو أنَّه كان مفهومًا وشائعًا بين النَّاس في بغداد أيَّامَ ابن ماسويه وحنين، وهذا الاصطلاح مركَّبٌ من كلمتين -شأنه شأن الاصطلاح الآخر (شبكور)- ويعني (الأعمى نهارًا)[٢].

في أواخر القرن العاشر الميلاديّ (الرّابع الهجريّ) سَمَّى ابن سينا[٣] هذا المرض (الجَهَر)، وسمَّاه عليّ بن عيسى[٤] بالاسمين (الجَهَر) و(روزكور)، معتمدًا الاصطلاحَ العربيَّ الذي اعتمده ابن سينا في الزَّمنِ نفسِهِ، ومُبْقيًا على الاصطلاح الفارسيِّ الذي استعمله حنين.

يرى حنين وعليٌّ بن عيسى وابن سينا أنَّ سببَ هذه العِلَّة هو اضطرابٌ

١- المسائل في العين: (المسألة ٢٠٣، ص٧٣).

٢- معجم المعرّبات الفارسيَّة في اللُّغة العربيَّة: (ص١٠٧): "شَبكرة: تعطل البصر ليلًا. معرب: شب: ليل + كور: أعمى".

شَبكور: الذي لا يرى ليلًا. واشتق العرب منها (الشبكرة) وفسروها بالعشاء وهو ضعف البصر ليلًا...".

٣- القانون: (٢/٢٤٠).

٤- التَّذكِرة: (ص٢٩٧).

يصيب "الرُّوحَ النُّوريَّ"[١]، يتجلَّى في ضعف[٢] هذا الرُّوح أو قِلَّته[٣] أو رقّته[٤].

أمَّا ابن ماسويه فيرى أنَّ آليَّةَ هذا المرض هي نقيضُ آليَّةِ المرضِ السَّابق، فإذا كانت رطوباتٌ معيّنةٌ هي التي تسدُّ مجرى العَصَب الأجوف ليلًا، فإنَّ مادَّةً أخرى هي التي تسدُّ هذا المجرى نهارًا، وذلك لأنَّ طبيعتها "حارَّةٌ"، هذه المادَّة هي "المِرَّة الصَّفراء"، فإذا اجتمعت –في النَّهار– "حرارةُ المِرَّة الصَّفراء" "وحرارة الشَّمس" تسبَّبَ ذلك في ازدياد "الضِّياءات والحرارة"؛ فلذلك لا يبصِرُ المرءُ بالنَّهار.

أمَّا "بردُ اللَّيل" فإنَّه "يطفئُ تلكَ الحرارةَ" "فتتحلَّل" "فيبصِر عند ذلك باللَّيل".

هذا هو رأْيُ ابن ماسويه، الذي لا نجده في (دَغَل العين) –كما قلنا سابقًا– في فصلٍ خاصّ، ولكنَّنا نجد له تعبيرًا طريفًا: "الوَجَع الذي يُسَمَّى **ثعلب اللَّيل** وهو الذي لا يبصِرُ بالنَّهار إلَّا بَصَرًا ضعيفًا، ويبصِرُ باللَّيل بصرًا جيّدًا".

إذا صَحَّت كتابةُ الاصطلاحاتِ العلميَّة في مخطوطات (دَغَل العين) التي وصلت إلى زماننا، فإنَّ كلمة (الجَهَر) ترِدُ في الفصل الثالث والأربعين من الكتاب بمعنًى آخر غير الذي استعمله عليّ بن عيسى وابن سينا في مرحلةٍ متأخرةٍ، يقول ابن ماسويه: "وأمَّا مَنْ كانَ به الجَهَر فهو الذي يتحَيَّرُ بَصَرُه إذا نظرَ إلى شعاعِ الشَّمس أو إلى النَّار".

إذا صحَّت كتابةُ هذه الاصطلاحات، فإنَّ ذلك يعني أنَّ للجَهَرِ دلالتين، ينبغي أنْ نحقِّقهما عند المؤلِّفين الذين كتبوا بعد ابن سينا وعليّ بن عيسى، لتحديد المعنى الدَّقيق لكُلِّ دلالة.

١– تعبير عليّ بن عيسى: التَّذكِرة: (ص٢٩٧). أمَّا حنين فيقول: "القوَّة النُّوريَّة": المسائل في العين: (المسألة ٢٠٣، ص٧٣).

٢– حنين، عليّ بن عيسى.

٣– حنين، عليّ بن عيسى، ابن سينا: القانون: (٢/٢٤٠).

٤– ابن سينا.

البحث الثالث ٤- ٥- ١- ٣

العِلَّةُ التي فيها "يبصِرُ من بعيدٍ، ولا يبصِرُ من قريب"

سببُ هذه العِلَّة عند ابن ماسويه يشبهُ سببَ العِلَّة الأولى، أمَّا الذي يختلف فهو الآليَّة.

فالسَّببُ هو (كيموس) أيضًا، وهو "بلغمٌ لزِجٌ متلَبّدٌ" يكون "قارًّا" في "العَصَب الأجوف".

والنَّظَرُ إلى الشَّيء البعيد لرؤيته يُتْعِبُ العينَ، فَتُسَبِّبُ الحرارةُ الغريزيَّةُ فيها "إثارةً" لتلك "الرُّطوبةِ"، ذلك أنَّ ثقبَ العين يسبِّبُ زيادةَ هذه الحرارة، والحرارةُ هي التي تحلِّلُ هذا الكيموس، كما تحلِّله في العِلَّةِ الأولى "حَرَارةُ النَّهار".

أمَّا حنين في (العشر مقالات)[١] فإنَّه يذكر لهذه العِلَّة سببين: الأوَّل يتَّفِقُ فيه مع ابن ماسويه وهو "كثرة الفُضول" التي تخالط الرُّوحَ النَّفسانيَّ، أمَّا السَّببُ الآخر فهو "غِلظ الرُّوح النَّفسانيّ" نفسه.

ويشرح آليَّةَ العِلَّةِ في (المسائل في العين)[٢]:

"إذا حدَّق النَّاظِرُ إلى الشَّيء، ومدَّ بَصَره إليه لبُعْدِهِ، لطفت الرُّوحُ ورقَّت بطولِ مَدِّ البَصَر إلى ذلك الشَّيء" "فإذا قَرُبَ منه تكاثفت الرُّطوبة" "والغِلَظُ مُلاقٍ الرُّوحَ، فلا يبصِرُ".

والتفسيرُ نفسه يأتي به عليّ بن عيسى[٣].

١- العشر مقالات: (ص١٤٤).

٢- المسائل في العين: (المسألة ٢٠١، ص٧٢).

٣- التَّذكِرة: (ص٢٩٣).

البحث الرابع ٤- ٥- ١- ٤

العِلَّة التي فيها "يبصِرُ الإنسانُ من قريبٍ، ولا يبصِرُ من بعيد"

في (معرفة مِحْنة الكَحَّالين) ضاعت المادَّة العلميَّة -على الأرجح- التي كتبها ابن ماسويه.

أمَّا في (دَغَل العين) فلم يبقَ منها إلَّا العنوان "القول على ضعف قوَّةِ البصر". "الذين يبصِرون الأشياءَ القريبةَ بصرًا جيّدًا، لا يبصِرون الأشياءَ البعيدةَ كما ينبغي" "إنَّما يصيبهم ذلك من ضعف قوَّة البَصَر".

والنَّصُّ الذي يصف المرضَ ويفسِّرُ آليَّة حدوثه ضاع -مع الأسف- لكنَّ العلاجَ موصوفٌ، ولا ندري ما إذا جاء (العلاج) مطابقًا لما قاله المؤلِّفُ.

والمرضُ موصوفٌ عند حنين وعند عليّ بن عيسى، ويمكن العودة إليهما.

أمَّا هنا فلن ننقلَ وصفَ المرض، ذلك أنَّه لم نجد في كتابي ابن ماسويه عبارةً واحدةً تتعلَّق بوصف هذا المرضِ أو بآليَّةِ حدوثه أو أسبابِ ذلك، ويمكنُ العودةُ إلى ما كتبه حنين[١]، وعبارة عليّ بن عيسى واضحةٌ[٢]: "فيرى القريبَ، ويصعبُ عليه البعيدُ"[٣].

١- المسائل في العين: (المسألة ٢٠٠، ص٧٢).
العشر مقالات: (ص١٤٤).

٢- التَّذكِرة: (ص٢٩١).

٣- التَّذكِرة: (ص٢٩١): "فيستقصي نظرَ الأشياء ويثبِتُها على حقائقها إذا دنا منها، وأمَّا إذا بَعُدت فلا".

الفصل الثاني ٤- ٥- ٢

عِلَلُ الطَّبقات والرُّطوبات

يقول المؤلِّفُ: "نذكرُ" "عِلَلَ الطَّبقات التي في العين، وتفسيرها، وعلاماتِها، وابتداءها، وكيفياتِها".

وللأسفِ فإنَّه لم يبقَ في مخطوطاتنا إلَّا القليلُ من هذه المادَّة العلميَّة، وهي في مجملها لا ترقى إلى المستوى الذي وَعَدَ به المؤلِّف: "تفسير العِلَل" "علامات العِلَل"... إلخ.

وتحديدًا فإنَّه لم يبقَ إلَّا بعضُ الفقرات المتعلِّقة بأمراض المُلتحمة والقليل عن أمراض القرنيَّة وشيءٌ عن أمراض العِنبيَّة، أمَّا عِلَل الطَّبقات والرُّطوبات الأخرى، فهي تستدعي المزيدَ من التمعّن ومن مراجعة (دَغَل العين) لفهم آراء المؤلِّفِ، وبالتالي لفهمها.

لا نستطيعُ أنْ نقدِّرَ هل أفرد المؤلِّفُ فصلين في الكتاب، واحدٌ لعِلَلِ الطَّبقات، وواحدٌ لعِلَلِ الرُّطوبات، أم أنَّه أرادَ أنْ يجمعهما في فصلٍ واحدٍ بعنوان (عِلَل الطَّبقات والرُّطوبات).

وكذلك لا نعلم أينَ أرادَ أنْ يضعَ الفصلَ المتعلِّقَ بـ(عِلَل الجفن).

في المخطوطات لا نعثرُ على جوابٍ، ويظلُّ التَّساؤل قائمًا، لكنَّه لم يبقَ في المخطوطات إلَّا مادَّةٌ محدودةٌ تتعلَّق بثلاث طبقاتٍ هي الملتحمة والقَرنيَّة والعِنبيَّة، وبثلاث رطوباتٍ هي البَيضيَّة والبَرَدية والزُّجاجيَّة، لذلك فإنَّنا نعرِضُ هذه الموضوعات السِّتَّة في الصَّفحات التالية، تاركين (عِلَلَ الجفن) لكي نعرِضَها مع ثلاث حالاتٍ تصيبُ العينَ ولا يمكن أنْ تُصَنَّفَ على أنَّها من أمراض الطَّبقات والرُّطوبات، نعني بها: المَاء، والزُّرقة، ونتوء العين.

البحث الأوَّل ٤- ٥- ٢- ١

عِلَلُ الإكليل

أ- الوَرَم:

قلنا أنَّه بقيَ في مخطوطات (معرفة مِحْنة الكَحَّالين) ثلاثةُ أمراضٍ، وذِكْرٌ لمرضٍ رابعٍ، هو (**الظَّفَرة**)، لكنَّ (دَغَل العين) يذكر أمراضًا أخرى من أمراض الطَّبقةِ الملتحمة؛ منها (**الوَدَقَة**)[١] و(**الانتفاخ**)[٢]، على سبيل المثال.

ومن المُهِمّ أنْ نلاحظَ أنَّ ابن ماسويه صَنَّفَ (السَّبَل) من أمراض الطَّبقة الملتحمة في الوقت نفسه الذي صَنَّفَهُ فيه من أمراض القَرنيَّة، وهذا ما لم يفعله مؤلِّفٌ غيرُه.

وإذا كان قد استعمل اصطلاح (الوَرَم) للدلالة على (التهاب الملتحمة) الذي سمَّاه حنين (الرَّمَد) فإنَّ (دغَل العين) يستعمل الاصطلاحين كليهما (الرَّمَد) و(الوَرَم).

(الوَرَم) هنا له عند ابن ماسويه دلالةٌ خاصَّةٌ لا علاقة لها بما نسمِّيه (وَرَمًا) اليومَ، فالوَرَمُ اليومَ مرضٌ ينجمُ عن تكاثرٍ غير طبيعيٍّ في الخلايا يسبِّبُ تورُّمًا أو تَشَكّلَ كتلةٍ غريبةٍ في الأعضاء، أو كِبَرًا في حجمها وتغيّرًا في طبيعتها، وينجم عنه ضررٌ في البدن.

(الوَرَم) عند ابن ماسويه هو (مرضٌ) يتظاهرُ بتَوَرُّمٍ في العضو، أي بِكِبَرٍ في حجم العضو، أو انتباجٍ فيه، وبتدقيق الوصف السَّريريّ للورم نرى أنَّه (الالتهاب) بلغة اليوم، وهو مرضٌ له أسبابٌ كثيرةٌ، يحصرها ابن ماسويه ومعاصروه في

١- دَغَل العين: الفصل السادس والأربعون.

٢- دَغَل العين: الفصل الواحد والأربعون.

(الـدَّم، والصَّـفراء، والسَّـوداء، والـبَلغم، والـرِّيح). و(ورم المُلتحمـة) هـو مـا سـمَّاه معاصرو ابن ماسويه (الرَّمَد)، وقد استعملَ ابنُ ماسويه –هنا– اصطلاحَ (الإكليل) للدلالة على المُلتحمة.

وقد صَنَّفَ ابنُ ماسويه (الأورام) التي تصيبُ الإكليلَ في خمسة أنواعٍ، ذكر علاماتِ كُلِّ واحدٍ منها.

وقد اعتمدَ في تصنيفه على (سبب حدوث الوَرَم).

صفوة القول أنَّه في عصر ابن ماسويه –وبعد ذلك– صُنِّفَ الرَّمَد إلى خمسة أصنافٍ، تصنيفًا سببيًّا، وهي الأسبابُ عينُها التي وصفها ابنُ ماسويه سريريًّا، وهذه الأصناف يختلف بعضُها عن بعضِها الآخر –من الناحية السَّريريَّة– حيث يَتَظاهرُ كُلُّ صنفٍ منها بعلاماتٍ خاصَّةٍ به، فهي أصنافٌ مستقلّةٌ سببيًّا وسريريًّا.

ومن المؤكَّدِ أنَّ ضياعَ قسمٍ كبيرٍ من مادَّة الفصول المتعلِّقة بـ(عِلل الإكليل) يمنعنا من معرفة حقيقة ما كتبه ابنُ ماسويه في الكتاب، فإذا أردنا أنْ نأخُذَ فكرةً عن هذه (العِلَل) كما كتبها ابن ماسويه فعلينا بالبحث عنها في كتابه الآخر (دَغَل العين)، لعلَّنا نجد فيه المزيد من الوصف. وينبغي كذلك مراجعةُ القسم المتعلّق بـأمراض العين من كتاب (المُشجَّر) لابن ماسويه الذي لخص فيه سريريات أمراض العين.

وما يسري على (الوَرَم) يسري على الأمراض الأخرى التي لا بُدَّ لتحقيقها من مراجعة هذين الكتابين كذلكَ.

ب– الخُروق:

لم يبقَ من وصف ابن ماسويه للخروق إلَّا القليلُ، فإذا جمعنا إليها ما جاء في (دَغَل العين) نتمكَّن من استعادة المادَّة العلميَّة التي كتبها ابن ماسويه، أو جزءًا منها بشكلٍ أوضح ممَّا جاء في (معرفة مِحْنة الكَحَّالين).

ج- السَّبَل:

بقِيَ من المادَّة المخصَّصة لهذا المرض في (مِحْنة الكَحَّالين) جزءٌ مُهِمٌّ جديرٌ بالدِّراسة والتأمّل.

فغِنَى الاصطلاحات التي استعملها المؤلِّفُ لوصفِ المرض يثير الاهتمام. والأمر المُهمُّ الآخر في هذا الموضوع هو أنَّ المؤلِّفَ يصفُ هنا إلى جانب (السَّبَل القَرنيّ) -وهو ما وصفه المؤلِّفون جميعًا- حالةَ إصابةِ الملتحمة بالسَّبَل. وهي أيضًا مادَّةٌ تستدعي التوقف عندها.

د- الظَّفَرة:

لم يَرِدْ -كما قلنا- في (مِحْنة الكَحَّالين) إلَّا اسمُ هذا المرض، أمَّا في (دَغل العين) فإنَّنا نجد مادَّةً تستدعي التوقف عندها لمعرفة ما يُمكنُ أنْ يكونَ قد كُتِبَ في (مِحْنة الكَحَّالين) وضاع من مخطوطاتنا.

وتلي عِلَل **المُلتحمة** عِللُ القَرنيَّة وعِلَلُ العِنبيَّة، وسوف نخصِّصُ لها فصولًا مستقلةً، في عرضنا لمادَّة (معرفة مِحنة الكَحَّالين).

هـ- أورام الإكليل:

والتَّعبيرُ -بطبيعة الحال- لابن ماسويه، ومعناه اليوم (التهابات الملتحمة)، اصطلاحُ (وَرَمٍ) كان شائعًا في القرن التاسع الميلاديّ (الثالث الهجريّ) بمعنى (مرضٍ) أو (التهابٍ)، وسمَّاه كثيرون (وَجَعًا) و(أَلَمًا).

أمَّا (الإكليل) فهو اصطلاحٌ انفرد به ابن ماسويه -في حدود ما نعلم- ويعني به (الملتحمة)، وقد استَعْمَلَ في أماكنَ أخرى من كتابه اصطلاحَ (الملتحمة)، و(الطبقة البيضاء)، وقد استعمل بعضُ المؤلِّفِين اصطلاحَ (إكليل) فقالوا: (إكليل

السَّواد) يَعْنون به ما نسمِّيه اليوم (اللّم) أو(**اللمب) القَرنيّ الصُّلبيّ**[1]، وهو (الحدود بين القَرنيَّة والصُّلبة)، التي تنتهي فيها الملتحمة حولَ المركز، كما هو معروفٌ، محيطةً بالقَرنيَّة إحاطةً تامَّةً، ولا تتجاوز حدودها.

ويُظْهِرُ ابنُ ماسويه هنا مقدرةً متميزةً في اختيار الألفاظ التي يصِفُ فيها (ورم الملتحمة)، فالورم: حارٌّ أو ثقيلٌ أو خَشِنٌ، وهو حادٌّ أو لَذَّاع، وهو أبيض أو أحمر، وهو رطبٌ أو (معه جفوف)، ومعه (قِلَّة دمعة) أو أنَّه (وربَّما صار "كالزِّقِّ المنفوخ".

والأَلَم الذي يتظاهر به (الوَرَم) مختلفُ الدَّرجة، "لا يصيب وجعًا"، "ليس معه وجعٌ كوجعِ غيره".

وبطبيعة الحال فإنَّ هذه الألفاظ دَخَلت عالمَ الاصطلاحات، بوصفها من اصطلاحات (الأعراضِ) التي ترافقُ أمراضَ العين –وعلى رأسها (الرَّمَد)– واستعملها بعدَهُ كثيرٌ من المؤلِّفين.

ما نزالُ حتى اليوم بحاجةٍ إلى دراساتٍ في حقل (الاصطلاح)، لكي نعرف ما هي الاصطلاحات التي جاءت على لسان المؤلِّفين الذين كتبوا قبل القرن التاسع، أي **في بدايات عصر الترجمة أو قبل ذلك**، نعني بها مؤلَّفات ماسرجويه البصريّ الذي عاش أيام الأمويين، وعيسى بن حكم الدمشقي الذي عاش حتى أدركَ عصرَ الرَّشيد، وذلك على سبيل المثال. وهذه مُهِمَّةٌ تبدو مؤجلةً بسبب أنَّ مؤلَّفات هؤلاء لم تصل إلى عصرنا، إذا استثنينا (الرِّسالة الهارونيَّة) التي كتبها عيسى بن حكم (مسيح الدِّمشقيّ) وقدَّمها للرشيد، وباستثناء مقتبساتٍ قصيرةٍ احتفظ بها بعضُ المؤلِّفين المتأخرين.

١- (Limbus corneosclerale)

وقبل أنْ تغتنيَ هذه الدراسات لا نستطيع أنْ نعرفَ ما هي الاصطلاحات التي وضعها التراجمةُ، وما هي الاصطلاحات التي اضطُرَّ عامَّةُ الناس –قبل عصر الترجمة– إلى وضعها بسبب حاجتهم إلى التَّعبير أو بسبب أنَّهم كانوا ينقلون عباراتٍ جاءت على لسان أبناء عمومتهم السُّريان أو جيرانهم الفرس الذين كان لهم تراثُهم الطِّبّيُّ المكتوبُ قبل الإسلام بزمنٍ طويلٍ، والذين كانوا على اختلاطٍ بالعرب الذين عرفوا عن طريق هذا الاختلاط معارفَ طبيَّةً لا يجوز الاستهانة بها.

وإذا تعرَّفنا على هذه (الألفاظ) التي أخذت شكلَ (الاصطلاح) فإنَّه يمكن لنا بعد ذلك أنْ نبحثَ عن دلالالتها في اللُّغة العربيَّة القديمة، قبل الإسلام، وقبل الاختلاط.

وهذه مسائلُ لا تقع في اهتمام اللُّغويين فحسب، ولا في اهتمام (المصطَلحيين)، بل تتعدَّاهم إلى حقل مؤرِّخي الطِّبِّ والمؤرِّخين عمومًا الذين يهمُّهم أنْ يعرفوا إلى أيِّ مدًى اختلط العربُ بالشعوب التي تجاورهم قبل الإسلام، وهل كانوا على صلةٍ بمدارس الشام والجزيرة، أو بمدرسة جنديسابور.

وذلك من أجل أنْ نعيدَ كتابةَ تاريخ العرب في العصور التي أُهمِلتْ حتى الآن، ومنها عصر ما قبل الإسلام الذي وصلت القبائل العربيَّة فيه إلى (الحضر) و(الرُّها) شمالًا، وإلى شرقي (أنطاكية) وجوار (آمد).

و– الوَرْدِيْنَج:

هذا المرض "ضربٌ من الرَّمَد"[١] وهو "أشدُّ"[٢] أنواعه و"أصعبها"[٣]، يتظاهر

١– دَغَل العين: الفصل الخامس والأربعون.
٢– العشر مقالات (ص١٢٩). التذكرة (ص١٦٠).
٣– العشر مقالات (ص١٢٩). التذكرة (ص١٦٠).

بجميعِ الأعراض التي يتظاهر بها الالتهاب الشَّديد[١].

قال عنه ابنُ ماسويه في (مِحْنة الكَحَّالين): "يكون في الجفون" أو "في الإكليل".

وقال عنه ابن سينا: "ومنه [من الرَّمَد] ما هو عظيم مجاوِزٌ للحدِّ في العِظَم"[٢].

وتكون إصابةُ الملتحمةِ البصلية شديدةً بحيثُ "يربو فيه البياضُ على الحدقةِ فيغطِّيها، ويمنع التَّغميض"[٣]، والبياض هنا هو الملتحمة، والحَدَقَة هنا هي القرنية؛ أي سواد العين[٤].

وكذلك تكون إصابةُ الجفنِ شديدةً جدًّا إلى درجة "أنَّ الجفنين كليهما يَرِمان وينقلبان"[٥].

وهذا المرضُ الذي سمَّاه العرب (الوَرْدِينج) كان معروفًا عندهم منذ ما قبل عصر الترجمة، بسبب اختلاطهم بالفرس، وقد عرَّبوه وهم يعرفون أصلَه الفارسيّ، أمَّا التراجمة فقد اقترضوا هذا الاصطلاحَ (الأعجمي أصلًا) لكي يُزيلوا به عُجْمَةَ الاصطلاح اليونانيّ (كيموسيس)، كما يقول الأستاذ إبراهيم بن مراد[٦] عن هذه الحالات من التعريب التي نجدها هنا وهناك في النُّصوص الطِّبيَّة القديمة.

١- التَّذكِرة: (ص١٦١): "وتتبعُه جميعُ الأعراض اللازمة لورم الأعضاء، أعني: الانتفاخ، والوَجَع، والصَّلابة، والحُمْرة".

٢- القانون: (١٨٨/٢).

٣- القانون: (١٨٨/٢).

٤- العشر مقالات: (ص١٢٩): "ويكون بياض العين أرفع من سوادها". وكذلك التَّذكِرة: (ص١٦١) حرفيًّا.

٥- العشر مقالات: (ص١٢٩).

٦- تفسير كتاب دياسقوريدوس: مقدِّمة عامَّة: (ص٥٣): "... ذلك أنَّ عددًا كبيرًا من المصطلحات قد اكتفى ابن جُلجل بنقله بمصطلحات لاتينيَّة ممَّا كان شائعًا في بلاد الأندلس. فقد عامل ابن جلجل في كتابه المصطلحات اللاتينيَّة معاملةَ اصطفن بن باسيل وحنين بن إسحق من قبْلُ المصطلحات الفارسيَّة التي (عَرَّبا) بها المصطلحات اليونانيَّة...".

يقول ابن سينا عن هذا المرض: "... ويسمَّى كيموسيس، ويُعْرَفُ عندنا بالوَرْدِيْنَج"[1].

وكان حنين قد قال: "... العِلَّة المُسمَّاة باليونانيَّة (خيموسيس)، وتفسيره: (الرَّمَد الصَّعب جدًّا)"[2].

ويقول ابن ماسويه: "الوَرْدِينج ويسمَّى وردين"[3].

١- القانون: (١٨٨/٢).

٢- العشر مقالات: (ص١٢٥).

٣- دَغَل العين: الفصل الخامس والأربعون.

البحث الثاني ٤- ٥- ٢- ٢

علل القرنية

مقدِّمة:

لم يبقَ من هذا الموضوع شيءٌ مُهِمٌّ إذا استثنينا وصفَ السَّبَل.

يذكر أسماءَ بعضِ أمراضِ القرنيَّة:

١- الخُروق والفتوق.

٢- القُروح.

٣- السَّرطان.

٤- البَيَاض.

٥- المُورسرج أو العِنَبة.

ولا نجد لها وصفًا واضحًا، أو لا نجد لها وصفًا ألبتة.

لكنَّه في موضوع (الخُروق والفُتوق) يذكر أنَّ لها أسبابًا خارجيَّة وأسبابًا داخليَّة.

فالأسباب الخارجيَّة هي الرُّضوض عمومًا، أو الأذى الناجم عن (الأدوية الحادَّة المُحْرِقَة).

أمَّا الأسباب الدَّاخليَّة فسببها (الكيموسات الحادَّة).

هذه الأمراض الخمسة نجد لها ذكرًا أو وصفًا في (دَغَل العين)، بينما يذكر المؤلِّفُ في (مِحْنة الكَحَّالين) أمراضًا لم نجدها في (دَغَل العين) (كالحُمْرة الناجمة عن الدَّم) (والصُّفرةِ الناجمة عن اليرقان)، وفي الوقت نفسه نجد في (دَغَل العين) أسماءَ أمراضٍ لا نجدها في (مِحْنة الكَحَّالين) مثل (الحَصَف) و(النَّار الفارسيَّة).

وهذا ما يدفعنا إلى المزيد من الارتياح إلى مقولتنا: إنَّ الكتابين وصلا إلى عصرنا ناقصين.

أ- السَّبَل:

وَصَفَ ابنُ ماسويه السَّبَلَ الذي يصيبُ الملتحمةَ "الطبقةَ التي تُسمَّى الإكليل، وهي الطبقةُ البيضاء، ويقال لها باليونانية: افيفافيقوس"، وذلك في أربع مسائل[١]. وانتقل بعدها إلى وصْفِ السَّبَل الذي يصيب "الطبقة" "التي يقال لها باليونانية: قراتويذيس، وتفسيره: القَرنيّ" في مسألةٍ واحدة.

ونستطيع أنْ نرى العبارات التي استعملها -وبخاصَّةٍ الاصطلاحات في كتابه (دَغَل العين)- في أربعة أماكن[٢]، وهذا -بطبيعة الحال- يشمل الوصفَ السَّريريَّ.

يقول ابن ماسويه بوضوحٍ شديدٍ، ولكنْ بتعبيرٍ غير مألوفٍ:

"ريحُ السَّبَل يكون على ضربين: فمنه ما يكون **ظاهر**[٣] **العين**، ومنه ما يكون **باطن**[٤] **العين**".

وسببُ هذين المرضين "نزولُ مادَّةٍ في العُروق"[٥]. فإذا نزلت المادَّةُ عن طريق "العُروق التي داخل الجمجمة"[٦] سبَّبت (سبلَ القَرنيَّة)[٧]، وهو ما قال عنه

١- لا تحمل هذه المسائل أرقامًا في المخطوطات، لكنَّنا أعطيناها أرقامًا، تسهيلًا للعودة إليها في البحث.

٢- دَغَل العين: في الفصول: (١٠)، و(١٢)، و(٤٥)، و(٤٦).

٣- دَغَل العين: الفصل الخامس والأربعون.

٤- دَغَل العين: الفصل الخامس والأربعون.

٥- دَغَل العين: الفصل العاشر.

٦- دَغَل العين: الفصل العاشر.

٧- مِحْنة الكَحَّالين: المسألة (٣٦).

"باطن العين"[١]، أما إذا نزلت المادة عن طريق "العروق التي خارج الجمجمة"[٢] فإنَّها تسبِّب (سبلَ الملتحمة)[٣]، وهو ما قال عنه "ظاهر العين"[٤].

سببُ السَّبَلِ عند ابن ماسويه خروج "بخارات الأغذية" ووصولها إلى "الدِّماغ" "فتجتمع" هناك، وتُحْدِثُ في الدِّماغ "رطوبةً وحرارةً دمويَّةً فاسدةً"؛ ما يضطرُّ الدِّماغَ إلى أنْ "ينفيها" "إلى الأطراف"، ومن هذه الأطراف "الحِجاب الذي فوق القِحْف"، الذي ينفيها بدوره إلى الأطراف، والأطراف هنا هي "الطَّبقة البَيضاء المُسمَّاة (الإكليل)".

فإذا كانت هذه الطبقة تعاني من "ضعفٍ" فإنَّها تَقْبَلُ هذه الرُّطوبة، وهذه الحرارة، وهما اللتان تفعلان بفسادهما فعلًا مؤذيًا في الملتحمة يؤدِّي إلى ظهور السَّبَل.

أمَّا إذا "نفى" الدِّماغُ هذه المادَّةَ الفاسدةَ عن طريق "الحِجاب الذي تحت القِحْف" فإنَّه ينفيها بدوره إلى "القَرنيَّة"، ولا عجب، فالقرنيَّة نباتها من هذا الحِجاب، كما أنَّ نبات الملتحمة من "الحِجاب الذي فوق القِحْف".

ويكونُ العلاج بأنْ "ينقّيَ" الطَّبيبُ الطَّبقةَ التي أُصيبت، وأنْ يَرُدَّ "الفضلَ" الفاسدَ عنها، وبعد ذلك عليه أنْ يقوِّيَ هذه الطبقة لكي لا تعود قابلةً مجيءَ فضلٍ آخر يسبِّبُ لها الأذى والمرض.

١- دَغَل العين: الفصل العاشر. دغَل العين: الفصل الخامس والأربعون.

٢- دَغَل العين: الفصل العاشر. دغَل العين: الفصل الخامس والأربعون.

٣- مِحْنة الكَحَّالين: المسألة (٣٢، و٣٣).

٤- دَغَل العين: الفصل الخامس والأربعون: (ريح السَّبَل).

وعلى الطَّبيب أيضًا أنْ "ينقِّيَ الدِّماغَ" لكي "ينقطِعَ مجيءُ" هذه "المادَّةِ" الفاسدةِ إلى العين.

وينبّه ابنُ ماسويه إلى أنَّ بقاءَ المرض يعود إلى أحد سببين:

١- "خطأ العليل" إذا "توانى" عن المعالجة.

٢- أو "خطأٌ" يقعُ "على العليل" إذا كانت المعالجةُ غير صحيحةٍ. ويمضي المؤلِّفُ في شرح هذه الأفكار التي يوافِقُهُ عليها أطباءُ عصره.

ويتطرَّق المؤلِّف إلى ذكر اختلاطين يحدثان عن إهمال المريض أو عن سوء المعالجة من قبل الطبيب، وهما:

١- السُّلاق: الذي يُؤْذي العينَ كثيرًا.

٢- الشَّعر "الزَّائد" الذي "ينبت في غير موضِعِهِ" "ويكاد لا يدعُ العينَ تنظُرُ ولا تطرفُ إلَّا طَرَفَها" "ولا تُبْصِرُ إلَّا وَخَزَها".

ويعرِّجُ ابنُ ماسويه على ذكر الحالة التي يجتمع فيها ثلاثةُ أمراضٍ في وقتٍ واحدٍ في العين: "السَّبَل والشَّعر والسُّلاق".

ومن الجدير بالذِّكر ما نبَّه إليه ابن ماسويه من أخطار استعمال المخدِّرات في علاج عيون الصِّبيان، فهي تسكِّن العينَ (الحَدَقَة) لكنَّها لا تعالِجُ السَّببَ، "لا تُنْضِجُ الفَضْلَ" "فيصير داءً لازمًا".

ب- سَبَل الملتحمة:

من علامات إصابة الملتحمة بالسَّبَل، يذكُرُ ابن ماسويه عددًا كبيرًا، وقد تأكَّدنا من دِقَّةِ ما كتبه الناسخ وصحَّحنا ما لم يُوَفَّق إلى كتابته، وذلك بالبحث عن العبارات نفسِها عند ابن ماسويه في (دَغَل العين)، وعند المؤلِّفين المعاصرين.

من هذه العلامات:

العُروق الحُمْر الغِلاظ التي تبدو في بياض العين والتي تميل إلى أنْ تَغْشى سوادَ العين أولًا ثمَّ تتعداه إلى المركز (الناظر) ثمَّ تعمُّ السَّوادَ كلَّهُ.

وفي الوجه حُمْرةٌ وحِكَّةٌ وبخاصَّةٍ في الجبين.

وتَدُرُّ عروقُ الصُّدْغين، وتنتفخُ وتمتلئُ وتنبضُ، ويسرعُ النبضُ.

ويشكو العليلُ من صُدَاعٍ وزُكَامٍ وعُطَاسٍ في بعض الأحيان .

ج- سَبَلُ القَرنيَّة:

إذا كان سَبَلُ القَرنيَّة يختلف عن سبلِ الملتحمة في آليَّة حدوثه، فإنَّ الأعراضَ تتشابه إلى حَدٍّ كبيرٍ، مع الفارق، وهو أنَّ إصابةَ القَرنيَّة أَشدُّ إيذاءً وإيلامًا وبالتالي أسوأ إنذارًا، وأفدَح.

فالعُروق التي تنشأ على القرنية قد تجعلُها حمراءَ اللَّون.

وتظاهُرُ هذه العُروق أشدُّ، وقد تنتَسِجُ وتُشَكِّلُ ما يشبه الغَمام، "تعتري الناظرَ غشاوةٌ".

والدَّمعة أغزر، والعطاس كثيرٌ، مع فضولٍ رطبةٍ تنزل من الأنف.

وينتثر شعر الأجفان، وتتضيق الفَرجة الجفنيَّة "تتقلَّص الحَدَقَة".

والألمُ أشدُّ، "وجعٌ شديدٌ في أصل العين" "ويجد العليل كأنَّ عينيه تُقْلَعَان" ويعاني من "شدّة القلق".

قلنا إنَّ ابن ماسويه وصف سَبَلَ القَرنيَّة الذي وصفه الجميع، ووصفَ كذلك سَبَل الملتحمة الذي لا يكون قد وصل في تَقَدّمِهِ إلى القرنيَّة، وابنُ ماسويه في هذا متفرّدٌ في هذا الباب لم يسبقه إليه أحدٌ في حدود معرفتنا، ولم يُقَلِّدْهُ أحدٌ، فقد نسج المتأخرون على منوال حنين وعليّ بن عيسى وابن سينا في التَّصنيف.

لكنَّ الأهمَّ من ذلك هو معالجةُ السَّبَل جراحيًّا، فالمعروف في القرن التاسع أنَّ أطبَّاء العين لجؤوا إلى ما يُسَمَّى "لَقْطُ السَّبَل"، وهذا إجراءٌ شائعٌ دام لعِدَّةِ قرونٍ.

أمَّا ابن ماسويه فوصفَ عملية **(قطع الملتحمة حول القرنية)**، وفي حدود علمنا أنَّ هذه العملية لم تكن معروفةً عند الأساتذة الإغريق الذين نقل العربُ عنهُم، ولا نعرفُ طبيبًا عربيًّا وصفَ هذه العملية ونسبها إلى جرَّاحٍ عاش قبله، والطريقة التي وصلنا[1] بها وصْفُ هذه العملية لا توحي بأنَّ ابن ماسويه يقول بأنَّه هو الذي أوجد هذه العملية أو طوَّرها أو نقلها عن أحدٍ. فهل كان ابن ماسويه ينقل ما تَعَلَّمَهُ من أستاذٍ بشكلٍ عمليٍّ، وأنَّ هذا الأستاذ لم يترك أثَرًا مكتوبًا؟ أم أنَّ هذه العملية كانت شائعةً أيام ابن ماسويه بشكلٍ لا يستدعي أنْ تُنْسَبَ لأحدٍ، أم أنَّ ابن ماسويه هو أوَّل من فكَّر فيها ونفّذها؟

على كُلِّ حالٍ: إنَّ أقدمَ وصْفٍ مكتوبٍ لهذه العملية حفظه لنا ابن ماسويه.

"إذا لم يبرأ هذا الوَجَعُ بما وصفنا من العلاج، ولم تنقطع عنه المادَّةُ، ولم يبرأ بهذه الأنواع التي وصفنا من الفَصْد وغيره، فإنَّا نقطعُ هذا الحجابَ الذي حول سواد الحِجابِ الذي يشبه القرنَ، على هذه الحال التي نصف، يُعَلَّقُ الحجاب...".

١- جاء وصفها عند ابن ماسويه في (دَغَل العين).

البحث الثالث ٤- ٥- ٢- ٣

عِلَلُ الطَّبقة العِنبيَّة

مقدِّمة:

يعدِّدُ المؤلِّف أربعةَ أمراضٍ:

١- "ضيقُ الناظر" أي "صِغَرُه".

٢- "اتِّساعُ الناظر" أي "كِبَرُه".

والمرضان كِلاهما قد يكونان مرضَيْن خِلْقِيّيْن -بلغة اليوم- أي (بالطَبْع)[١]، وقد يكونان مَرَضَيْن مُكْتَسَبَيْن، أي (بالعَرَض)[٢].

وقد قال ابن ماسويه عن اصطلاح (بالطبع): "في الخِلْقَة".

٣- "اعوجاجٌ" "يعرِضُ له [للناظر] إلى أحد الجوانب".

٤- "خُروقٌ" تكون فيه [في الناظر]، وأسباب الخُروق تكون "من خارجٍ"، كما تكون "من عِلَلٍ داخلةٍ كالقُروح والبَثْر".

---

١. المسائل في العين: (المسألة ٨٠، ص٤٣).
- المسائل في العين: (المسألة ٨٥-٨٦، ص٤٤).
- التَّذكِرة: (ص٢٤٤-٢٤٦).

٢. المسائل في العين: (المسألة ٨٠، ص٤٣).
- المسائل في العين: (المسألة ٨٥-٨٦، ص٤٤).
- التَّذكِرة: (ص٢٤٤-٢٤٦).

وقال عليّ بن عيسى أيضًا: (العارض). في العشر مقالات: (ص٢٤٤-٢٥٢).
وكذلك قال ابن سينا: (عارضًا): القانون: (٢/٢٤٤).

خصَّصَ المؤلِّفُ لتعداد عِلَلِ العِنبيَّة مسألةً واحدةً ثُمَّ خصَّصَ ثلاثَ مسائل لتفصيلاتها: ضيقُ الناظر واتِّساعُه، وأسبابُ حدوث الاتِّساع، ومعالجتُهُ، ثمَّ كَتَبَ عن "الخُروق" في مسألةٍ خاصَّةٍ.

وإذا كان قد حصلَ نَقْصٌ في هذه المادَّة، فلا بُدَّ أنْ يكون قليلًا، لأنَّ المادَّةَ تبدو مفهومةً، وبطبيعة الحال فإنَّ ما كتبه المؤلِّف كان مختصرًا، وفق خطة الكتاب، يبدو ذلك إذا ما قارنا حجمَ هذه المادَّة بحجم نظيرتها في (دَغَل العين)، هذا من جهة، ومن جهةٍ أخرى، فإنَّ ما كتبه عن (ضيق الناظر) لا يتناسَبُ مع ما كتبه عن (اتِّساع النَّاظر) من حيث حجمُهُ.

وقد عدَّدَ المؤلِّفون أربعةً من أمراضِ العِنبيَّة، كما فعل ابنُ ماسويه، لكنَّ بعضَهم جعل من اعوجاج الناظر مرضين: أحدُهُما: "زوالُ"[1] الناظرِ إلى أحد الجوانب، والآخر: هو تشوّه الشَّكلِ الدائري للناظر، حيثُ يصبحُ النَّاظرُ فاقدًا لاستدارته المعروفة.

يقول حنين:

"كم هي آفات ثقب العِنبيَّة وهو الحَدَقَة؟

جواب: أربع: اتِّساعُهُ وضيقُهُ وزوالُهُ وانخراقُه[2].

والاتِّساع والضِّيق، كُلُّ واحدٍ منهما يكون على جهتين: إمَّا بالطبع وإمَّا بالعَرَض"[3].

١- استعمل حنين بن إسحق اصطلاح (زوال): المسائل في العين: (المسألة ٨٠، ص٤٣). العشر مقالات: (ص١٢١).

٢- استعملَ حنين بن إسحق اصطلاح (انخراق). المسائل في العين: (المسألة ٨٠، ص٤٣). العشر مقالات: (ص١٢١).

٣- المسائل في العين: (المسألة ٨٠، ص٤٣).

أ- اتِّساع النَّاظر:

ذكر ابن ماسويه الأسبابَ التي تؤدِّي إلى اتِّساع النَّاظر، وذكر أيضًا اسمَهُ بالسُّريانيَّة، لكنَّ الكلمةَ -مع الأسف- غير مقروءة.

واستعمل كذلكَ تشبيهًا لتفسير حدوث الاتِّساع في ثقب العِنبيَّة، الذي ينجمُ عن يَبْسِها: "كَمَثَلِ جِلْدٍ بُلَّ بالمَاء، ثمَّ تَثْقُبُ فيه ثَقْبًا وَتَتْرُكُهُ حتى يَجِفَّ، فإذا جَفَّ الجلدُ تَقَبَّضَ مَوْضعُ الثَّقبِ واتَّسَعَ فصارَ مثل ما في نفسه مرَّتين وثلاثًا" "وكذلك هذه الطَّبقة إذا هي جَفَّت اتّسعَ الثَّقْبُ الذي فيها".

وبعد أكثر من قرنٍ يعود ابن سينا إلى إيراد التَّشبيه نفسه: "والعِنبيَّة نفسُها إن يَبِسَتْ وتمدَّدَتْ إلى أطرافها تَمَدُّدَ الجلودِ المثقوبة عند اليَبْس عرضَ لها أنْ تَتَّسِعَ كما يَتَّسِعُ ثَقْبُ تلكَ الجلود"[1].

ونُرَجِّحُ أنْ يكونَ النَّقصُ في المادَّة العلميَّة هنا قليلًا، ذلك أنَّ حجمَ ما جاء في (دَغَل العين) كان مختَصرًا.

لكنَّ (إنذار المرض) الذي لا نجده هنا، موجودٌ في (دَغَل العين): "يتّسع الناظِرُ ويُضِرُّ بالبَصَر"[2].

"إنَّ اتِّساعَ الناظِرِ وضيقَه رديئان"، "وإذا كان هذان من بدء الخِلْقة فهما أقلُّ مَضَرَّة، ... وإن كان الانتشارُ والاتِّساعُ من بَعْد الخِلْقة لا يُبْصِرُ صاحبُهُما ألبتة"[3].

١- القانون: (٢/٢٤٣-٢٤٤).

٢- دَغَل العين: الفصل الثامن عشر.

٣- دَغَل العين: الفصل الثامن عشر.

- التَّذكِرة: (ص٢٤٤): "والذي بالطبع فرديء، فكيف الذي بالعَرَض؟
والذي يكون بالعَرَض آفتُهُ عظيمةٌ، لأنَّه يعرِضُ منه تبدُّدُ النور وانتشارُه".

والإنذارُ السَّيئ موجودٌ بوضوحٍ عند ابن سينا أيضًا[1]، كما هو موجودٌ عند عليّ بن عيسى[2].

وكما نفتقد (إنذارَ المرضِ) هنا فإنَّنا نفتقدُ ذكرَ (الصَّدْمَة) التي تصيب العينَ بوصفها أحد الأسباب التي تسبِّبُ (اتِّساعَ الناظر) وَتُضِرُّ بالبَصَر أو تودي به[3]، فهي تسبِّبُ (الانتشارَ) الذي يتظاهرُ (بالاتِّساع) كما سبق وشرحنا، و(الصَّدمة) ذَكَرَها معظمُ المؤلِّفين.

وفي معالجة (الاتِّساع) يسوق ابنُ ماسويه قولًا شهيرًا لـ(إبقراط): "الضِّدُّ بالضِّدِّ، الحرارةُ بالبرودة، والبرودةُ بالحرارة، والرُّطوبةُ باليَبْس، واليبسُ بالرُّطوبة". وهو يقصد من ذلك أنْ يشرحَ للقارئ أنَّه يعالج سبَبَ الآفة التي أصابت العِنبيَّةَ، فيبسُ العِنبيَّة ناجمٌ عن يَبْسِ الدِّماغِ وغشائِهِ اللَّيِّن، أو عن رطوبةِ الدِّماغِ.

فاليَبْسُ يُبْقي الناظرَ المتّسع مستديرًا، أمَّا الرُّطوبة فتسبِّبُ للناظر اعوجاجًا مرافِقًا للاتِّساع.

فعلاجُ اتِّساع الناظرِ الناجمِ عن يَبْسِ الدِّماغ يكون بترطيب الدِّماغ، وعلاجُ اتِّساعِ الناظرِ الناجم عن رطوبةِ الدِّماغ يكون باستعمال الأدوية التي تقلِّلُ رطوبةَ الدِّماغ، أي الأدوية المجفِّفة.

١- القانون: (٢/٢٤٣-٢٤٤): "وربَّما بلغَ إلى أنْ لا يرى شيئًا" "فإنَّه كثيرًا ما تتّسع العين حتى تبلغَ السَّعَةُ الإكليل، ولا يبقى من البَصَر ما يُعْتَدُّ به".

٢- دَغَل العين: الفصل الثامن عشر.

- التَّذكِرة: (ص٢٤٤): "والذي بالطبع فرديء، فكيف الذي بالعَرَض؟

والذي يكون بالعَرَض آفتُهُ عظيمةٌ، لأنَّه يعرِضُ منه تبدُّدُ النور وانتشارُه".

٣- القانون: (٢/٢٤٣-٢٤٤): "... وما كان من ضَرْبةٍ أو صدمةٍ، فلا علاج له".

ب- ضيق النَّاظر:

لا يكتب ابن ماسويه كثيرًا عن هذه العِلَّة، فما وصلنا في (مِحْنة الكَحَّالين) لا يتجاوزُ تعريفًا قصيرًا، وتقسيمًا إلى حالةٍ خِلْقيَّةٍ وحالةٍ أخرى يكون المرض فيها (تاليًا) أو (ثانويًّا) ناجمًا عن آفةٍ أخرى، ولا نجد في (دَغَل العين) المزيدَ.

أسباب هذه العِلَّة هي:

١- "إمَّا من وَرَمٍ فيضغَطُهُ [يضغط الناظِرَ] من جوانبه".

وعبارةِ عليّ بن عيسى ليست بعيدةً عن عبارة ابن ماسويه: "عن وَرَمٍ مفرطٍ يَضْغَطُهُ"[١].

٢- "وإمَّا من يَبْسٍ وتَشَنُّجٍ لفَنَاء الرُّطوبة البيضيَّة التي تغذوه" [الناظر] والمقصود (العِنبيَّة).

ويشير عليّ بن عيسى إلى هذا (اليَبْس) الذي "يغلب على مِزاجها [العِنبيَّة]"[٢]. كما يشير إلى "نقصان الرُّطوبة البيضيَّة"، "فلا يكون لها [العِنبيَّة] ما يُندّيها..."[٣].

وما بقي في المخطوط عبارةٌ ناقصةٌ تشيرُ إلى أنَّ ابنَ ماسويه كتب المزيدَ، وقد ضاع. وربَّما كان هذا في نطاق تعداد أسباب (ضيق الناظر) التي عدَّد عليّ ابن عيسى ستَّةً منها.

وإذا كان ابن ماسويه قد استعمل اصطلاحَ (فناء البيضيَّة) فإنَّ حنين بن إسحق[٤] قد استعمل اصطلاحَ (قِلَّة الرُّطوبة البيضيَّة).

١- التَّذكِرة: (ص٢٤٦).

٢- التَّذكِرة: (ص٢٤٦).

٣- التَّذكِرة: (ص٢٤٦).

٤- المسائل في العين: (المسألة ٨٤، ص٤٤). العشر مقالات: (ص١٢١).

البحث الرابع ٤- ٥- ٢- ٤

عِلَل الرُّطوبة البَيضيَّة

يصفُ الأطبَّاءُ العربُ التَّغيّرات التي تحدثُ في هذه الرُّطوبة بإسهابٍ، ويعزون إليها الأعراض التي يشكو منها المَرْضى.

فهذه الرُّطوبة قد (تَكْثُر) كَمّيَّتُها أو (تَقِلُّ)، وقد يتغيّر (مِزاجُها) أو (لونها)، وقد (تَجِفّ)، أو يظهر (الغِلَظُ) في بعض أجزائها، وقد يصيبها كُلَّها. وقد جاء في (دَغَل العين) ذكرُ عددٍ كبيرٍ من هذه التَّغيّرات، التي **قَدَّرَ** الأطبَّاءُ حدوثَها **تقديرًا**.

أمَّا في (معرفة مِحْنة الكَحَّالين) فلم يبقَ إلَّا احتمالان ثُمَّ يظهرُ نقصٌ في المادَّة الموجودة في مخطوطاتنا:

الاحتمال الأوَّل: "إنْ جَفَّ منها موضعٌ واحدٌ".

والاحتمال الثاني: "إنْ جَفَّ منها مواضع".

ففي الحالة الأولى "يُخَيَّلُ" لصاحب العِلَّة أنَّه يَرَى "كوَّةً" تدور "حيثما يَدُورُ بَصَرُ" المريضِ.

وفي الحالة الثانية "خُيِّلَ إليه، إذا هو نَظَرَ في الشَّيءِ كأنَّ فيه كُوًى كثيرةً".

البحث الخامس ٤- ٥- ٢- ٥

عِلَلُ الرطوبة البَرَدية

المسألةُ المخصَّصة لـ(عِلَلِ البَرَدية) في (مِحْنة الكَحَّالين) فيها نقصٌ بَيِّنٌ، إذا لم ينتبه له القارئُ فإنَّه يوحي بأنَّ المؤلِّفَ وقعَ في خطأ.

يذكرُ المؤلِّفُ عددًا من أمراض البَرَديَّة، وهي:

١- زوال البَرَدية إلى فوق أو إلى أسفل، أو إلى أحد الجانبين "يمنةً أو يسرةً" فإذا زالت إلى الأعلى أو إلى الأسفل رأى المُصَابُ بهذه العِلَّة "إذا نظَرَ إلى الشَّيء الواحد" "رآه شيئين".

وهنا وقع النَّقص، ذلك أنَّ عباراتٍ ضاعت من النَّصِّ فصارَ مفهومُ الكلماتِ المتبقيَّة أنَّ (رؤيةَ الشَّيء الواحد شيئين) تكونُ عند زوال الجليدية إلى أحد الجانبين. وهذا خطأ لا يمكن أنْ يقعَ فيه المؤلِّف.

فالشَّائع هو ما أَوردناه، ذلك أنَّ كُلَّ الأطبَّاء العرب ذكروا أنَّ "رؤيةَ الشَّيء الواحد شيئين" تكونُ إذا تحرَّكت البرديةُ إلى الأعلى أو إلى الأسفل، وليس إلى أحد الجانبين.

وابن ماسويه نفسُهُ يُصَرِّحُ بذلك في (دَغَل العين)[١]:

"يرى صاحبُ هذا الوَجَع الشَّيءَ الذي بين يديه كأنَّهُ شيئان" (وصاحبُ الوَجَع) هنا هو (صاحبُ المرض).

و(الوَجَعُ) هنا: "إنْ مالت إلى أسفل أو إلى فوق" يقصدُ "البَرَديَّةَ".

١- دَغَل العين: الفصل العشرون.

أمَّا إذا "مالت وزالت" "الرطوبة البردية" "من موضعها يمنةً أو يسرةً" "كان الحَوَلُ".

وهذه الملاحظات السَّريريَّة القيّمة كانت شائعةً بين المؤلِّفين العرب بعد عصر ابن ماسويه وحنين، ولا نعرف دراسةً واحدةً درست مشاهدات هؤلاء المؤلِّفين الشَّخصيَّة: أيُّهم عَبَّرَ عن تجربته الخاصَّة في الممارسة؟ وأيُّهم نقلَ عن السَّلَف؟

٢- إنْ "طَلَعت" البَرَديةُ، "وارتفعت" من مكانها، أي إنْ ذهبَتْ إلى الأمام في البيضيَّة. والنَّصُّ يقول:

"رَأَتْ كُلَّ شيءٍ كبيرًا عظيمًا على خلاف ما هو به من القدرِ والهيئة".

٣- إنْ "هَوَتْ" "ومَرَّت سفلًا" فإنَّ المصابَ "يرى كُلَّ ما يراه صغيرًا" "ولا يتبيَّنُهُ إلَّا بعد حين".

ويذكر ابن ماسويه هنا الاسمَ السُّرياني لهذه الآفة، والكلمة غير مقروءةٍ، للأسف.

٤- "جفوفٌ" أو "يَبْسٌ" حادثٌ، وهذا يؤدّي إلى أنَّ العين لا "تقبل النُّورَ الذي يأتيها من الدِّماغ" "وتجفّ العينُ وتصغرُ".

٥- إذا "زادت رطوبتُها فوق ما ينبغي" فإنَّ "العينَ كلَّها ترطُبُ برطوبتها".

٦- أنْ "يتغيَّرَ لونُ البَرَدَية إلى السَّواد أو إلى الحُمْرة أو إلى الصُفْرة" عندها لا تقبل البرديةُ "النُّورَ الذي يأتيها من الدِّماغ"، "فلم يبصِر صاحبُ العِلَّةِ".

وثمَّةَ جُمَلٌ ناقصةٌ أخرى هنا يحاول المؤلِّف من خلالها شرحَ بعض الظواهر المرضيَّة، كأن: "يرى الإنسانُ الأشياءَ منصبغةً" "رأى الأشياءَ كلَّها صفرًا" أو "حمرًا". ويذكر أشياءَ -ضاعت من النَّصِّ- عن رؤية الأشياء (صُفرًا) في حالة اليرقان و(حمرًا) في حالاتٍ أخرى، وأنَّ هذه الرؤية الأخيرة "تنجلي وتذهب" بالفَصْد، كما "تنجلي وتذهب" الرؤيةُ الناجمة عن اليرقان بعد علاجه.

وقد كتبَ عددٌ من المؤلِّفين الإغريق والعرب عن (رؤيةِ الأشياء صفراء) في حالة اليرقان، و(رؤيتها حمراء) في حالاتٍ مَرَضيَّة أخرى.

وفي (دَغَل العين)[1] يشرح المؤلِّفُ حالتي أنْ "يُبْصِرَ صاحبُ هذا الوَجَعِ كُلَّ شيءٍ يبصرُهُ أحمرَ" و"يرى جميعَ الأشياء التي يُبْصِرُ كأنَّها صُفْر".

ففي الحالة الأولى "ينزل الدَّم من الدِّماغ لغذاء الرطوبةِ البَرَدية" "والرطوبةِ التي تشبهُ الزُّجاج"، فإذا "فسد الدَّمُ" و"لم يتغيّر إلى لون العين" وظَلَّ على "حالته ولونه" يغيّرُ لونَ البرديةِ إلى الأحمر.

"وكذلك من كان به يرقان" فإنَّه هو الذي يبصر الأشياءَ صفراء، كما في الحالة الثانية.

١- دَغَل العين: الفصل العشرون.

البحث السادس ٤- ٥- ٢- ٦

عِلَلُ الرُّطوبة الزُّجاجيَّة

تكون الأسباب ناجمةً عن "يَبْسٍ" أو "رُطوبةٍ" أو "بَرْدٍ" فتتهيَّجُ[١] هذه الرطوبة، وإذا حدث ذلك "يُهيجُ تَهَيُّجُها الطبقات كُلَّها"، وما وصل في النَّصّ -في مخطوطاتنا- قصيرٌ إلى درجة أنَّنا لا نفهم منه إلَّا هذا، وقد اختلط النَّصُّ الموجود هنا مع نصٍّ آخر يتعلق بعِلَل الطبقة "الشَّبكيَّة".

وفي (دَغَل العين)[٢] جاء النَّصُّ مشوّشًا وناقصًا، لا نستطيع أنْ نركنَ إليه في تفسير ما جاء في (مِحْنة الكَحَّالين) قبل أنْ يتمَّ تحقيقه.

لا نستطيعُ الزَّعمَ أنَّ قراءتنا لهاتين الكلمتين صحيحةٌ "تَتَهَيَّج" "تَهَيُّجُهَا". إذا كانت صحيحةً فهذا يعني أنَّ ابن ماسويه استعمل هاتين المفردتين على نحوٍ اصطلاحي. (الهَيَاج)، وهو الأعراض الصاخبة التي يسبِّبها المرض، والتي يتظاهر بها.

لكنْ، ثمَّةَ احتمال آخر وهو أنْ يكونَ ابن ماسويه قد استعمل كلمتي (تتهبَّج)، و(تهبُّجها) من (هـ ب ج)[٣] بمعنى **تورَّم** و**انتفخ**. وهذا الاستعمال الاصطلاحي ينفي وجودَ أعراضٍ صاخبةٍ.

الاحتمالان إذًا هما:

"فتتهَيَّجُ هذه الرطوبة"، و"يهيجُ تَهَيُّجُها الطبقات".

١- (دَغَل العين)- الفصل الواحد والعشرون، استعمل المؤلِّف الكلمة نفسها.

- القاموس المحيط: (٢١٣/١): "هاجَ يَهيجُ هَيْجًا وهَيَجانًا وهِياجًا: ثارَ كاهْتاجَ وتَهَيَّجَ وأثارَ".

٢- دَغَل العين: الفصل الواحد والعشرون.

٣- القاموس المحيط: (٢١١/١): "الهَبَجُ: كالوَرَمِ... وهَبَّجَهُ تَهْبيجًا ورَّمَهُ فَتَهَبَّجَ".

أو: "فَتَتَهَبَّجُ هذه الرطوبة"، "يُهَبِّجُ تَهَبُّجُها الطبقات".

والمعنيان مختلفان تمامًا من الناحية السَّريريَّة، بين أعراضٍ **حادَّةٍ** يتظاهَرُ بها المرض، وأعراضٍ **هادئةٍ مزمنةٍ**.

ولاستبعاد الخطأ الذي ينجم عن السَّهو، فقد تُقْرأُ العبارة على الشكلِ التالي:

"فتتهَبَّجُ هذه الرطوبة"، و"يهيّجُ تهبُّجها الطبقات" أي أنَّ تورّم هذه الطبقة وانتفاخها، هو **المرض البدئي** وهو"تَهَبُّجٌ"، وأنَّ هذا "التَّهبُّج" يكون سببًا في حدوث المرض التالي، "يهيّجُ" أعراضًا جديدةً في الطبقات، وعندئذٍ نفهم من كلمة "يهيّج" هنا معنًى واحدًا وهو (يسبِّبُ).

لا بُدَّ أنْ نبحثَ عن أعراضِ المرض، كما وصفها ابن ماسويه لكي نفهمَ منه ما إذا كان يتحدث عن مرضٍ حادٍّ يتظاهر (بالهَيَجَان والتَّهيُّج) أم أنَّه يتحدَّث عن مرضٍ مزمنٍ لا يتظاهر بأكثر من (التَّورّم والانتفاخ) و(التَّهبُّج).

في (دَغَل العين) العبارات مضطربةٌ، ناقصةٌ، وغير واضحةٍ. علينا إذًا أنْ نبحثَ عند المتأخرين عن أعراض العِلَل التي تصيب الرُّطوبةَ الزُّجاجيَّة لكي نفهمَ عن أيِّ شيءٍ تحدَّثَ ابن ماسويه وضاعت عباراته.

الفصل الثالث ٤- ٥- ٣

المَاء

- مقدِّمة:

المَاءُ عند الأطبَّاء العرب هو (السَّادُّ) باصطلاح اليوم، وهو تكثُّفٌ في عَدَسة العين (البِلَّورة). والعدسة –كما نعرفُ– تقعُ خلفَ القَزحيَّة، في المركز، حيثُ الحدقةُ التي تَمُرُّ منها (الخيالات) التي تنطبع في العين ويحصلُ بسبب دخولها (فِعْلُ الإبصار).

وقال العربُ عن هذه الخيالات –التي هي (صور المرئيات)– قالوا عنها (الأشباح)، وقالوا عن دخولها إلى العين وانطباعها هناك (التَّشَبُّح). ويُشْتَرَطُ لدخول هذه (الصُّور) إلى داخل العين أنْ تكون كُلُّ أجزاء العين التي يَجتازُها الضَّوءُ شفافةً، (فالقرنيَّة) شفَّافةٌ –كما هو معروفٌ– وكذلك (الخَلْطُ المائي) الذي يملأُ المسافةَ الكائنة بين وجه القرنية الخلفي ووجه القزحية الأمامي، شفَّافٌ أيضًا. والجسمُ الزُّجاجيُّ شفَّافٌ كذلك. وكذلك البِلَّورةُ الموجودة خلفَ (الحدقة) –تمامًا– شفَّافةٌ في الحالات العادية. وبذلك تنطبع (الصُّورُ) على الشَّبكيَّة، أي على قُطْب العين الخلفيّ.

فإذا فَقَدَ أَيٌّ من هذه الأوساط الشَّفَّافة شفوفَهُ، امتنع دخولُ الضَّوءِ إلى العين، أي امتنعَ دخولُ (صُوَرِ المرئيَّات) فامتنعَ الإبصارُ.

وموضوعنا –المَاء– هو أشهر هذه الحالات وأكثرُها شيوعًا، وهو أنْ تفقدَ البِلَّورةُ شفوفَها. ويكونُ علاجُه بإبعاد البلَّورة المتكثّفة عن طريق مرور الضَّوء، أي عن المحور الأمامي الخلفي للعين، أي أنَّه علاجٌ جراحيٌّ.

وكان الأقدمون يُدْخِلونَ إبرةً إلى داخل العين، يدفعون بها (البِلَّورةَ) ويخلعونها من مكانها، حيثُ تسقُطُ تلقائيًّا في أسفل تجويف العين؛ أي في أسفل الجسم الزُّجاجيّ.

وفي مرحلةٍ متأخرةٍ طوّروا عمليةً لامتصاص كتلةِ البِلَّورةِ؛ أي أنَّهم استخرجوا البِلَّورةَ بوساطة (الامتصاص). وهذا ما نفعله اليوم؛ نستخرجُ البلَّورةَ كُلَّها وهي محتفظةٌ بشكلها من العين، أو نمتصّ مادَّة البِلَّورة –ما أمكن–.

وقِوام البِلَّورة يختلف بين مريضٍ وآخر، ففي عمر الشَّباب تكون مادَّةُ البلَّورة طريّةً قابلةً للامتصاص، ولكنْ مع تقدُّم العمر تتصلّبُ نواةُ البِلَّورة فيلجأُ الجرَّاحُ إلى (تفتيت) مادَّة البلَّورة القاسية. والتفتيت له أساليبُ شتى، وكذلك الامتصاص.

أمَّا العرب فقد امتصّوا مادَّةَ (السَّادّ الطَّريّ) بإبرةٍ معدنيَّةٍ مجوَّفةٍ. وهناك وثائقُ تثبِتُ نجاحَ هذا النَّوع من العمل الجِراحيّ.

وأوَّلُ من استعملَ الإبرةَ المجوّفةَ المصنوعةَ من المعدن هو عمَّارُ بن عليّ الموصليّ الذي ولِدَ في الموصل وعمل في العراق وفلسطين والقاهرة. ووصفَ هذا العملَ الجراحيَّ في كتابه (المُنتخب في علاج أمراض العين) الذي ظهر في القاهرة حوالي عام (٤٠٠هـ=١٠١٠م).

وسَمَّى العربُ عمليةَ خلعِ السَّادّ من موضعه عمليةَ (القَدْح)، أو (قَدْح الماء)، وأطلقَ عمَّار على الأداة التي طوَّرها اسمَ (المِقْدَح المُجوَّف).

وحينما كان العربُ –وغيرُهم من الشُّعوب– يقدحونَ الماء كانوا يظنّون أنَّهم يزيلون **رطوبةً غريبةً** موجودةً في (جوار العِنبيَّة)، عند وجه القزحية الخلفي –كما نقول اليوم–. وكانوا يظنّون أنَّ عدسةَ العين (البِلَّورة) التي كانوا يسمُّونها (الجليدية)، موجودةٌ في مركز الكرة العَينية، أي في مكانٍ بعيدٍ عن موقع هذه الرُّطوبة التي هي (المَاء)، فالمَاء –عندهم– في الأمام والجليدية في مركز العين.

حينما ترجَمَ العربُ الطِّبَّ اليونانيَّ ترجموا ما كتبَهُ الإغريق عن (المَاء)، وعرفوا علاجَه الجِراحيّ الذي ذكرناه، وكانوا يعرفون العَمَلَ الجِراحيّ (للماء) عن

طريق الاتّصال بأطبَّاء الشَّام والعراق منذ فجر الإسلام وربَّما قبل ذلك، ونحن نعرفُ أنَّ العربَ تعرفوا على (الطِّبِّ العَمَليّ) قبل عصر الترجمة، عن طريق السُّريان.

وكان العربُ يعرفون كيف تَبْدأُ أعراضُ (الماء) وهو مرضٌ يصعب تشخيصُهُ في بدايته، لكنَّه حينما يتطوَّر يسهُلُ تشخيصُهُ لأنَّه يُؤْذي البَصَرَ.

يقول حنين[١]: "وإذا استَحْكَمَ الماءُ ذهبَ البَصَرُ، وكانت دلائِلُهُ أسهلَ معرفةً وأقربَ إلى الفهم ممَّا كان".

ويقول عليّ بن عيسى[٢]: "وهذه العِلَّةُ إذا استحكمت فهي سهلةُ المعرفة، فأمَّا في ابتداء كونها فعسرةُ المعرفة".

يتَّفق الأساتذةُ العرب على أمرين: أوَّلُهما: طبيعةُ هذا المرض (المَاء)، والثاني: آليَّة تأثيره.

يكاد حنين بن إسحق[٣] وعليّ بن عيسى[٤] يتّفقان حرفيًّا فيما كتباه:

"الماء": "رطوبةٌ غليظةٌ تجمدُ في ثَقْبِ الحَدَقَة" "تحجز بين الجليدية وبين الاتصال بالنُّور".

لكنَّ هذين المؤَلِّفَيْن لا يتفقان في تحديد مكان تَوَضُّع هذه "الرُّطوبة الغليظة". وهذا الاختلاف بينهما جديرٌ بالاهتمام لأمرين:

١- المسائل في العين: (المسألة ١٨٤، ص٦٧).
٢- التَّذكِرة: (ص٢٥٤).
٣- العشر مقالات: (ص١٤٠). المسائل في العين: (المسألة ١٨٤، ص٦٧).
٤- التَّذكِرة: (ص٢٥٤).

أولهما: أنَّ عليًّا بن عيسى لم يخالف حنينًا إلَّا فيما نَدَر.

بل إنَّه كثيرًا ما كان ينقل عنه حرفيًّا.

و**ثانيهما:** أنَّ هذا الاختلاف انعكس على المؤلِّفين المتأخرين الذين حاروا بين أُسْتاذَيهم. وهذا التأثير على الخَلَف يستدعي وقفةً خاصَّةً، ليس مكانُها هنا.

أمَّا لماذا وقع هذا الاختلاف بين هذين الأستاذين الكبيرين فهو -بكلِّ تأكيدٍ- خارجٌ عن موضوع (الطِّبِّ عند ابن ماسويه)، لكنَّنا سنُلَمِّحُ له في الصَّفحات القادمة تلميحًا، وذلك إلى جانب أمرٍ آخر له علاقةٌ بـ(طبيعة المَاء) يبدو فيه أنَّ حنينَ بن إسحق ينقل رأيين متناقضين عن (طبيعة المَاء).

أي أنَّنا قبل أنْ ننتقل إلى موضوع (موقع المَاء) ينبغي أنْ نُنَبِّهَ إلى أنَّ حنينَ ابن إسحق في مكانٍ آخر من (العشر مقالات)[1] -حينما يتحدّث عن (الرُّطوبة البَيضيَّة)- يقول: إذا "غلُظت" "البيضيةُ" وكانَ غِلَظُها "مفرطًا" وشَمَلَها "كُلَّها" فهو "المَاء"، "يُسَمَّى هذا الدَّاءُ المَاءَ".

حنين هنا يرى أنَّ طبيعةَ "المَاء" هي (غلظٌ مفرطٌ) يشمل البَيضيَّة كلَّها.

فكيف نوفّق بين قوله هذا، وبين ما قاله، ونقلناه في موضوع اتّفاقه مع عليّ ابن عيسى في موضوع (طبيعة المَاء)؟.

١- العشر مقالات: (ص١٢٢).

البحث الأوَّل ٤- ٥- ٣- ١

موقع المَاء

يقـول حنـين[١]: "المَـاء: وأمَّـا فيمـا بـين العِنبيَّـة إلـى الرُّطوبـة الجَليديَّـة، أعني في ثقب الحَدَقة فيعرِض (هوبوخيما) وهو الماء".

حنـين واضـحٌ إذًا: ينقـل عـن الإغريـق الاسـمَ اليونـانيَّ للمـرض. ويقـول أنَّـه يقـع فـي **المركـز**، أي (فـي ثقـب الحَدَقَـة). وهـو **فـي الخلـف** (بـين العِنبيَّـة إلى الرُّطوبة الجَليديَّة) أي **خلف القَزحيَّة** أو في ثقبها (ثقب الحدقة).

لكـنَّ علـيّ بـن عيسـى[٢] يقـول: "يعـرِضُ فيمـا بيـن الطَّبقـة العِنبيَّـة وبـين الحِجاب القرنيّ مرضٌ يقال له المَاء".

علـيّ بـن عيسـى واضـحٌ أيضًـا، المـرض يقـع فـي الأمـام، (بـين العِنبيَّـة والقَرنيَّة)، أي أمام القَزحية.

يعـرفُ علـيّ بـن عيسـى جيّـدًا مـاذا يعنـي أنْ يُعـارِضَ حنـين، فـالعرب تعرَّفـوا علـى الطِّـبِّ الإغريقـيِّ نتيجـةً لترجمـات حنـين، لـذلك فهـو يكـرِّرُ مـا قالـه: "وأمَّـا المـاء فهـو رطوبـةٌ تحصـل بـين العِنبيَّـة والقَرنيَّـة"، "والـدَّليلُ علـى أنَّ هذه الرُّطوبة بين العِنبيَّة والقَرنيَّة أنَّا نرى...".

وهـو إذْ يؤكِّـدُ مـا قالَـه يلجـأُ إلـى الاستشـهاد بـالإغريق: "وممَّـا يسـتدلُّ بـه أيضًـا أنَّ جـالينوس يقـول فـي المقالـة العاشـرة مـن (منـافع الأعضـاء): "إنَّ

١- العشر مقالات: (ص١٤٠).

٢- التَّذكِرة: (ص٢٥٤).

المـــاء يكـــون فـــي الموضـــع الـــذي فيمـــا بـــين الصـــفاق القرنـــي والرُّطوبـــة الجَليديَّـــة..."، "وفـــولس[1] المتقـــدِّم بعـــلاج الحديـــد [2] يـــذكر مثـــل هـــذا ويُصَحِّحُهُ".

١- بولص الأجيني من أهل القرن السابع الميلادي. وقد ترجم حنين كتابَهُ إلى العربية (الكُنَّاش) وهو كتابٌ مُهِمٌّ في الجِراحة بخاصَّة، وفي فنّ التوليد.

٢- العلاج بالحديد يعني (علم الجراحة).

البحث الثاني ٤- ٥- ٣- ٢

المَاء في (معرفة مِحْنة الكَحَّالين)

لـم يبـقَ فـي مـخطوطاتنا مـن المـادَّة العـلميَّة المتعلِّقـة بالمـاء إلَّا بضـعة أسطر[١]، لكنَّ مـا بـقي يحمل أهميـةً كبرى فيما يتعلَّق بتاريخ طِبِّ العيون عند العرب. فالموضـوع الذي اختلف فيه حنين وعـليّ بـن عيسـى معروفٌ عند ابن ماسويه: "أين محلُّ الماء من العين؟" "قد قال الحكماء في ذلك قولين" **فالخلاف الذي يتظاهر عند حنين وعليّ بن عيسى خلافٌ قديمٌ يعرفه ابن ماسويه،** ويشيرُ إليه ببساطة: "قال الحكماء في ذلك قولين".

لكنَّ المادَّة التي وصلتنا في هذا الكتاب ناقصةٌ بحيث إنَّنا لا نعثر فيها إلَّا على رأيٍ واحدٍ: "أحدهما: في خَمْل العِنبيَّة، من فوقها، ومن تحت القرنيَّة، فيَجمد المَاء فيما بين هاتين الطبقتين".

هل تسعفنا العودة إلى (دغَل العين) في محاولة معرفة المزيد عن هذه المادَّة الضائعة؟

المادَّة الموجودة في (دَغَل العين) تحتاج إلى دراسةٍ أوفى، ذلك أنَّها تشير إلى "أنواع المياه"[٢] "تكون بين الحجاب القرني إلى الحِجاب الذي تحته والرُّطوبة التي تشبه الجليد" "هذه الأنواع ونشوؤها من الرُّطوبة التي خلف الثقب الذي ينفذ فيه روح البَصَر".

العبارات غير مُنَسَّقَةٍ. فإذا لم نجدها منسَّقة عند مؤلِّفٍ متأخرٍ سنظلُّ عاجزين عن فهم رأي ابن ماسويه في (موقع المَاء).

١- أقلُّ من مئة كلمة.

٢- دَغَل العين: الفصل التاسع والعشرون.

إنَّ المادَّة المتبقية في مخطوطاتنا لا تسمح لنا بأكثر من أنْ نلقي على أنفسنا سؤالًا، بانتظار العثور على مخطوطاتٍ أخرى أو على معلوماتٍ أخرى: ألا يحقّ لنا أنْ نفهمَ من قول ابن ماسويه (في خَمْل العِنبيَّة) أنَّ الماء يتوضع في (الزوائد الهُدبيَّة)؟ أي خلف القَزحيَّة. وفي الوقت نفسه ألا يحقُّ لنا أنْ نفهمَ من قوله (في خَمْل العِنبية من فوقها) أنَّ الماء يتوضع في (ثقب العِنبيَّة) أي في (الحدقة)؟ وأنَّه في الحالتين "بين هاتين الطبقتين" أي بين القرنية والعنبية؟ "ومن تحت القرنية"؟

أولًا: يجب ألَّا نحمِّل النَّصَّ أكثرَ ممَّا يحتمل، **وثانيًا:** النَّصُّ الذي وصل إلى زماننا غيرُ موثوقٍ، ناقصٌ حتمًا، وربَّما كان يعاني –مثل كُلِّ الكِتَاب– من أخطاء كتابية. ولذلك وجب علينا أنْ ننتظرَ أحدَ أمرين:

أولهما: العثور على مخطوطاتٍ غير معروفةٍ لكِتَاب (معرفة مِحْنة الكَحَّالين).

وثانيهما: العثور على مقتبساتٍ من الكتاب في تراث (طِبِّ العيون) الغَنيّ الذي لم يُدْرَس بعد دراسةً جديرةً به.

هذا إذا أردنا أنْ نعرفَ كيف **فَهِمَ** المؤلِّفون العربُ هذا الموضوع، أمَّا إذا أردنا أنْ نعرفَ كيف **نَقَلَ** التراجمةُ العربُ هذه الفقرات من اللُّغة اليونانيَّة إلى اللُّغة العربيَّة فهذا موضوعٌ آخر.

البحث الثالث ٤- ٥- ٣- ٣

"المَاء المنقاد للقدح"

ما بقي في المخطوطات يشير إلى أنَّ الماء الذي ينقاد للقدح هو ذلك الذي لا يلتَصِقُ بالطبقة القرنية ولا يمازجها، وكذلك الذي لا يلتصقُ بالطَّبقة العِنبيَّة ولا يمازجها. الأوَّلُ منهما أبيضُ اللون، "وبياضُ" لونه سبَبُهُ "لصوقُهُ بالقَرنية"، والثاني منهما أسود اللَّون، "وسواد" لونه "من لصوقه بالطبقة العِنبيَّة".

شرط "المَاء المنقاد للقدح" أنْ يكون "بين هاتين الطَّبقتين غير ممازجٍ لهذه أو لهذه، مُفْرَدًا".

ونرجِّحُ أنْ تكونَ مادَّةٌ علميَّةٌ مُهمَّةٌ ضاعت من مخطوطاتنا، ذلك أنَّنا نفتقدُ ما يشيرُ إلى (ألوان الماء)، وإلى الفحص السَّريريّ الذي يدُلُّ الجرَّاحَ إذا كانت العينُ المصابةُ بالماء قابلةً للقدح أو لا؟

لقد خصَّصَ كُلُّ المؤلِّفين فصولًا واضحةً لهذين الموضوعين، بمن فيهم ابن ماسويه في (دَغَل العين).

يتّفقُ ابن ماسويه في (دغَل العين) مع حنين في تسمية بعض أنواع الماء: "ما يكون شبهَ الهواء" "وما يكون على لون الزُّجاج" وما يكون "جِصِّيًّا" وغيرها.

ولأنَّ (دَغَل العين) ما يزال بحاجةٍ إلى تحقيقٍ فإنَّنا لا نستطيع –الآن– أنْ نقولَ ما هو عددُ أنواع المَاء التي ذكرها المؤلِّف. أمَّا حنين فإنَّه يذكر سبعةَ أنواعٍ في (المسائل في العين) وعشرةً في (العشر مقالات)، أمَّا عليّ بن عيسى فيقول: "وهو أحَد عشر".

الفصل الرابع ٤- ٥- ٤

الزُّرْقة

هناك نوعان من الزُّرقة في (مِحْنة الكَحَّالين):

١- (الزُّرْقة) التي تتظاهر على العِنبيَّة، وهي في مقابل (الكُحولة).

٢- و(الزُّرقة) التي تكون خلف القَزحيَّة "لم تكن في العِنبيَّة، وكانت وراءها"[١].

أمَّا **النَّوع الأوَّل** من الزُّرقة فهو نوعٌ لا علاقة له بأمراض العين، فالناس يختلفون في ألوان عيونهم؛ منهم من عينه زرقاء ومنهم من عينه كَحْلاء، وبينهما لونان: الأشهل والأشعل.

وقد حاولَ بعضُ الأطبَّاء في مؤلَّفاتهم تفسيرَ هذه الظاهرة الطَّبيعيَّة (الفسيولوجيَّة)، وتركوا موضوعَ **(الزُّرقة) العارضة** لمكانٍ آخر في الكتاب حيث يُفَسِّرُ المؤلِّفُ كيفيةَ حدوث الأمراض.

وأما النوع الثاني من الزُّرقة: فعارضٌ، وهو إمَّا ضارٌّ بالبصر أو غير ضارٍّ أو قليل الضَّرَر.

هذا النَّوع الضَّارُّ بالبصر له سَبَبَان (عند حنين):

أ- "المَاء" إذا كان لونُهُ أزرق، ويكونُ "شديدَ الجمود"[٢].

١- المسائل في العين: (المسألة ١٨٦، ص٦٨).

٢- المسائل في العين: (المسألة ١٨٦، ص٦٨). العشر مقالات: (ص١٤١).

ب-"جفافٌ ويَبْسٌ"[١] في الجليدية "جفوف"[٢].

الأوَّل منهما يشفى والثاني لا يشفى.

ولذلك "ليس كُلُّ زُرْقةٍ عارضةٍ ماءً"[٣].

والزُّرقة الناجمة عن "المَاء" "تَبْرَأُ بالقدح"[٤]، بينما النَّوع الثاني من الزُّرقة "لا يبرأ".

لم ينتبه بعضُ المحقّقين إلى هذا الأمر واختلطت في أذهانهم (زُرقةُ العين) الطَّبيعيَّة بـ(زرقة العين) المَرَضيَّة، وذلك لأنَّ محاولات تفسير حدوث كُلِّ نوعٍ من هذين النَّوعين تستند إلى وصف التَّغيّرات التي تكون موجودةً في رطوبات العين أو التي تطرأ عليها.

وهذه التَّغيُّرات تتداخل وتختلط عندَ عددٍ من المؤلِّفين، وتسبِّبُ لبعض المحقّقين إرباكًا.

فعلى سبيل المثال: عند حنين[٥]: تكون العينُ زرقاء:

١- إذا كانت كمّيَّة البَيضيَّة "يسيرةً" أي قليلةً.

٢- أو إذا كانت كيفيتها "رقيقةً صافيةً".

٣- أو إذا كانت كمّيَّة الجليدية "كثيرةً".

٤- أو إذا كانت "مضيئةً نيّرةً صافيةً".

٥- أو "بسبب وضعها"، "موضوعةٌ ممَّا يلي من خارج".

١- المسائل في العين: (المسألة ١٨٦، ص٦٨).

٢- العشر مقالات: (ص١٤١).

٣- العشر مقالات: (ص١٤١).

٤- المسائل في العين: (المسألة ١٨٦، ص٦٨).

٥- المسائل في العين: (المسألة ٦٨، ص٣٨-٣٩).

وهكذا يعدِّد حالاتٍ مختلفةً، وهي كُلُّها في حدود (لون العين **الطَّبيعيّ الخِلْقيّ**.

وعند ابن ماسويه في (دَغَل العين): تكون العين زرقاء:

أ- إذا كانت الرُّطوبة البيضيَّة "قليلةً" "أقلّ ممَّا ينبغي".

ب- أو إذا كانت الرُّطوبة البَرَدية "كبيرةً" "بخِلقتها".

ج- أو إذا كانت البَرَدية "صافيةً فوق القدر".

أمَّا الحالة الرابعة -وهي التي تقابل الحالة الثانية عند حنين- فقد سقطت من عباراتها بعضُ الكلمات، لكنَّ ما بقي منها يكفي لفهمها: "أنْ تكونَ [البيضيَّةُ] صافيةً فوق القدر".

والاحتمالات عديدةٌ عند ابن ماسويه كما عند حنين، سنأتي على ذكرها عند تحقيق (دَغَل العين)، لكنْ من الضَّروري أنْ نُنَوِّهَ منذ الآن إلى أنَّ هذه الحالات لا يقتصر تظاهرُها في العين على تغيرٍ عضويٍّ، بل يكونُ سببُها أيضًا من تغيّرٍ في (الرُّوح الباصر)[1].

في (معرفة مِحْنة الكَحَّالين) يخصِّص ابنُ ماسويه مسألةً للون العين الأزرق:

"من ماذا تكون الزُّرقة؟" والعنوان الرَّئيس هو "ألوان العين"، والجواب:

١- "من كثرة الرُّوح الباصر وصفائه".

٢- "من عِظَمِ الرُّطوبة الجليديَّة وظهورها".

٣- "من نقصان البَيضيَّة وقلَّتها".

١- المسائل في العين: (المسألة ٦٨، ص٣٨-٣٩).

٤- "من نقصان سواد العِنبيَّة وصفائها".

وفي هذه المسألة يفسِّرُ أيضًا اللونَ الأكحل الذي يكون في العين "الكَحَل"، كما يفسِّر اللونين الآخرين "الشَّهَل" و"الشَّعَل".

وفي (مِحْنة الكَحَّالين) أيضًا يخصِّصُ ابن ماسويه مسألةً أخرى في مكانٍ آخر من الكتاب "للزرقة". وما بقي من هذه المادَّة في المخطوطات لا يسمح لنا بأنْ نفهمَ؛ أَيَتَحدَّثُ عن **الزُّرقة الفسيولوجيَّة أم عن الزُّرقة المَرَضيَّة**، لكنَّنا نفترض أنَّه بسبيل شرح الزُّرقة الطَّارئة، لأنَّه تحدَّثَ في مكانٍ آخر عن الزُّرقة التي هي لونٌ من ألوان العين الطَّبيعيَّة.

"فالزُّرقة في العين" "ضَرْبان"

"أحدهما يضرِبُ إلى الخُضْرة"

"والآخر يضرب إلى الصُّفرة"

الأوَّل له علاقةٌ "بالبَرَدية" "لكثرتها" "وصفائها" "وبُعْدها"، "فكلَّما بعُدَ وصَفا رأيتَهُ أخضر!" "وقد قال إبقراط: إنَّ المَاء الصَّافي إذا بَعُدْتَ منه رأيتَهُ أخضَرَ، فإذا قَرُبْتَ منه رأيتَه أبيضَ، صافيًا!".

والثاني ينجم عن امتزاج لونين أحدُهما يأتي من "بريقِ وصفاءِ" البَيضيَّة، أمَّا الآخرُ فقد سقطت العبارة التي تختصُّ به، أو تشوَّهت، ولم يبقَ إلَّا إشارة: "فصار أزرق أشهل"، "مائل إلى الشُّهولة والصُّفرة"، ونتوقع أنْ تكون بعض العبارات قد سقطت، ونرجِّح أنْ تكونَ العبارة: "فلمَّا قاربَ السوادَ [سوادَ العين، أي العِنبية] ببريقهِ وصفائهِ امتزجَ اللونان [صفرة لون البيضية] و[سواد العنبية] فصار أشهل أزرق مائلًا إلى الشهولة والصفرة"، وفي العبارة التي ضاعت كان المؤلِّفُ يكملُ تفسيرَ الزُّرقة، وما ذكرناه هنا يتعلَّق بتفسير (الشُّهولة).

الفصل الخامس ٤- ٥- ٥

نُتوء العين وعِظَمُها وجُحُوظها

وردت هذه الاصطلاحات الثلاثة في (معرفة مِحْنة الكَحَّالين):

١- فهناك حالةٌ "تَكْثُرُ" فيها "البيضيَّةُ والزُّجاجيَّة" "**فَتَعْظُمُ**" العينُ.

٢- وهناك حالةٌ خِلْقِيَّةٌ تكون "في الطَّبْعِ والمولِدِ" وأسبابُها "غَلَبَةُ الرُّطوبة" و"فَضْلُ الحرارة"، فتكون العينُ "**عظيمةً ناتئةً**".

٣- وهناك حالاتٌ طارئةٌ: كَأَنْ "تَنْحَدِرَ" "مادَّةٌ غليظةٌ سيَّالةٌ" خلفَ العين "عند العَضَل الماسِكِ للعينِ"، أو كَأَنْ يحدث هناك "في قعر العين" "ورمُ السَّرطان" "في أطراف العَصَب" أي قربَ العَصَب الأجوف خلفَ العين، "**فتجحَظُ**" و"**تَنْتُؤُ**" العينُ، وهذا ما يفهَمُهُ الطَّبيبُ العصريُّ تمامًا. يتكَوَّنُ خَلْفَ المُقْلة جسمٌ يحتَلُّ حَيِّزًا فيدفَعُها إلى الأمام.

لا نجدُ في (مِحْنة الكَحَّالين) أكثرَ من ذلك، وقد يكون السَّببُ أنَّ المؤلِّفَ اكتفى بذلك، وقد تكونُ بعضُ العبارات قد ضاعت من النَّصِّ -كما رأينا في مواضعَ عديدةٍ-.

علينا أنْ نتساءلَ: هل استعملَ المؤلِّفُ هذه الكلمات استعمالًا اصطلاحيًّا؟ وهل "عِظَمُ العينِ" عنده هو "النُّتوء" و"الجُحوظ" أم أَنَّه أرادَ أن يُفَرِّقَ بين هذه الكلمات بوصفها "اصطلاحات"؟

فالجُحوظُ في اللُّغةِ حالةٌ لا يُشْتَرَطُ أنْ تكونَ (حالةً مرضيَّةً)، فهل استعملها ابنُ ماسويه (اصطلاحًا) لتعني حالةً مَرَضيَّةً طارئةً؟

والأمر نفسُهُ يقالُ عن "النُّتوء"، وعن "العِظَم".

أمَّا من الناحية الطِّبيَّة فالمؤلِّفُ يُعَدِّدُ حالاتٍ محدَّدةً تُسبِّبُ الجُحوظَ؛ إحداها خِلْقيَّة، واثنتان طارئتان، تحدثُ واحدةٌ منهما عن "القَيء" أو "التَّهَوُّع"، والأخرى عن

الإصابة بوَرَمٍ سرطانيّ خلفَ المُقْلة. وهذا ما يفهمه الطَّبيبُ العصريُّ ويقبله. لكنَّ بعضَ المؤلّفين ذكر أسبابًا أخرى للجُحوظ لا نَجِدُها في (مِحْنة الكَحَّالين)، وهذا أمرٌ طبيعيٌّ، فالكتاب ليس كتابًا تعليميًّا أو مدرسيًّا بل هو كتابٌ فيه أسئلةٌ وأجوبةٌ اختارها المؤلّفُ ولا يُشْتَرَطُ أنْ تغطّي كُلّ المادَّة التَّعليميَّة.

إذا عدنا إلى (دَغَل العين) في محاولَةٍ للبحثِ عن مادَّةٍ علميَّةٍ أُخرى كَتَبَها المؤلّف، غيرِ موجودةٍ في مخطوطات (مِحْنة الكَحَّالين) التي وصلت إلينا فإنَّنا لا نجد فصلًا مخصَّصًا للجُحوظ، لكنَّ المؤلّف يَمُرُّ على ذكر هذا المرض مرورًا عابرًا في فصلٍ[1] خُصِّصَ للعلاج.

ونُفَاجَأُ إذْ نَجِدُ في فصلٍ آخر في الكتاب مادَّةً تلفت نظر الباحث، وذلك حينما يتحدث المؤلّفُ عن "شكل العين وخِلقتها وصفتها"[2]: "فالعيونُ الكِبَارُ الناتئةُ إلى خارج" "ضعيفةٌ في كُلِّ حين" "من عَرَضٍ يَعْرِضُ لها" أو "إنْ تَكُنْ هذه خِلقَتها الطَّبيعيَّة".

وهذه ملاحظاتٌ على غايةٍ كبيرةٍ من الأهميَّة من وجهة نظر الطِّبِّ العصريّ، فهذه العين معرَّضةٌ أكثر من العيون الأخرى لعددٍ من الأمراض، سواء كانت "كبيرةً" منذ الولادة أو إذا (كَبُرَ) حجمها نتيجةً للنموّ. لكنَّ المادَّة التي وصلتنا لا تسمح بأنْ نعرفَ ماذا كان المؤلّفُ يقصدُ بملاحظاتِهِ هذه.

ومن الناحية الاصطلاحيَّة لا نجدُ في هذين الكتابين تعريفًا واضحًا للجُحوظ أو النُّتُوء أو العِظَم.

١- دغَل العين: الفصل الخامس والأربعون.

٢- دغَل العين: الفصل السادس عشر.

الفصل السادس ٤- ٥- ٦

عِلَل الأجفان

لَعَلَّ أوضحَ مثالٍ على النَّقصِ الذي وقعَ في مخطوطاتنا هو موضوع (عِلَل الأجفان)، ذلك أنَّه لم يبقَ من الفصل إلَّا تعدادٌ لأمراض الجفن وهي في المخطوطات أحد عشر مرضًا، ولا نجد أيَّةَ مسألةٍ تتعلَّق بوصفِ مرض من هذه الأمراض أو أكثر، وقد يقول قائلٌ إنَّ المؤلِّفَ حُرٌّ في ألَّا يختارَ أيَّ سؤالٍ من حقل (أمراض الأجفان) في كتابٍ من هذا النَّوع، إلَّا أنَّ هذا الاحتمال يبدو لنا غير منطقيٍّ، فأمراضُ الأجفان تشغلُ في كُلِّ كتب الكُحْل أكثرَ من ربع الكتاب، وهي تعادلُ وحدَها ما يُكْتب عن عِلَلِ طبقات العين كلِّها مجتمعةً.

والأمراضُ المذكورةُ هي:

١- انقلاب الجفن إلى الدَّاخل.

٢- انقلاب الجفن إلى الخارج.

٣- نبات الشَّعْر [الزَّائد].

٤- انقلاب الشَّعْر، ويستعمل المؤلِّف كلمة (تقلُّبهما).

٥- انتثار الأهداب، ويقول المؤلِّف: (انتثار شعرهما).

٦- الغِلَظ.

٧- وَرَم الجفن "كما يعرِضُ في الطَّبقات أيضًا".

٨- البَثْر "الصِّغار".

٩- حكَّةٌ شديدةٌ.

١٠- الجَرَب.

١١- القَمْل والصِئبان والقَمقام.

ولا نعلمُ ما إذا اكتفى المؤلِّفُ بذكر هذه الأمراض، أم ذكَرَ أمراضًا أخرى ضاعت أسماؤُها من المخطوطات، ذلك أنَّ عددَ أمراض الجفن التي نجدها عند حنين، والتي تقتصر على الجفن وحدَهُ يزيد على العشرين.

إذا صَحَّت كتابةُ الاصطلاحاتِ العلميَّة في مخطوطات (دَغَل العين) التي وصلت إلى زماننا، فإنَّ كلمة (الجَهَر) ترد في الفصل الثالث والأربعين من الكتاب بمعنًى آخر غير الذي استعمله عليّ بن عيسى وابن سينا في مرحلةٍ متأخرةٍ، يقول ابن ماسويه: "وأمَّا مَنْ كانَ به الجَهَر فهو الذي يتحَيَّرُ بَصَرُه إذا نظر إلى شعاع الشَّمس أو إلى النَّار".

إذا صَحَّت كتابةُ هذه الاصطلاحات، فإنَّ ذلك يعني أنَّ للجَهَر دلالتين، ينبغي أنْ نحقِّقهما عند المؤلِّفين الذين كتبوا بعد ابن سينا وعليّ بن عيسى، لتحديد المعنى الدَّقيق لكُلِّ دلالة.